رواية

قطار العمر



أحمد كايد

قطار العمر

رواية

أحمد كايد

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١١/١/٣٦٠)

٨١٣,٩
حسين، احمد خليل كايد
قطار العمر / احمد خليل كايد حسين .- عمان : المؤلف، ٢٠١١

( ) ص .
ر. إ. : ٢٠١١/١/٣٦٠.
الواصفات : القصص العربية//العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الطبعة الاولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

مطبعة الشباب - عمان

مقدمة

ربما كانت المحاسن الظاهرة في حياة الإنسان، سبباً لمصائب خفيّة ، وأحزاناً أليمة ، تنتظره في مرحلة من مراحل العمر، فإن أسعفه الحظ ، عاش سعيداً ، وإن خانه ، داسه الزمن بأقدامٍ من حديد .

أحمد

قطار العمر

حين يطغى التّيه على عقل الحسناء، وتضع نفسها في برج من وهم، يخشى الخاطبون من صنف البشر، التّقرب منها، تمرّ مواكب الأعراس تباعاً تحت قلعتها، بعضهم يزفون على خيل، وآخرون على الأكتاف، وسط أهازيج الشباب وزغاريد النّسوة،على أنغام المزامير وقرع الطبول، وهي تنظر إليهم من عليائها بشفقة ورثاء، حتّى يأتي يوم يشفق النّاس عليها.

هذا ما حدث مع جيهان، فكانت أمّها تعرض عن الخاطبين واحداً تلو الآخر، تنتظر عريساً خرافياً لإبنتها، يشقّ الريح على ظهر حصان في سرعة البرق، يقتحم عليها القلعة المنيعة، وعلى خاصرته مفاتيح من ذهب.

كان والدها رشيد بك، على رأسها ورأس أمها وأخيها الصغير ممدوح، يعيشون تحت سقف واحد، في بيت عريق على خاصرة جبل اللويبدة الجنوبية، يطلّ على شارع وادي السّير من جهة الشمال، وسط حديقة غنّاء، فيها حوض مهجور للسباحة، محاط بمصاطب وممرّات من رخام ، ونافورة ماء، وسط مقاعد وأحواض للزهور، تتسامى في فضاء الحديقة، أشجار الصّفصاف العالية ، تتهامس بين أغصانها أصناف الطيور.

كان الرجل شامي الأصل ، عمانيّ المولد ، ينحدر من أسرة قديمة، موصوفة بالمحافظة على ذكر الجاه والأمجاد ، وهو كالكثيرين ، لا ينظر إلى ما وراء الأشياء ، بل إلى الظاهر منها ، ورث عن والده عقارات ومحلاً تجاريًا وسط عمّان، يديره موظفون، يُدرّ عليه ربحاً وفيراً ، وهو يسترخي في النعيم، لا تشغله في الدنيا، سوى متعة الرّوح والجسد.

كان رشيد بك حسن الخلقة، ابيض اللون سمين الوجه،مشدود الأسارير،إلاّ انه لا يصون الصّداقة، له عالم خاص كأنه قادم من جرمٍ آخر، وصفه صديق عافه منذ سنين ، انّه يشبه شجرة الدّفلى ، حسن المنظر سيئ المخبر.

أما الأم ، فاسمها كوكب ، من أصول برجوازية، نحيفة الوجه، ملساء الصدر والسّاقين ، حين تتحدث أمام الضيوف ، تقضم الحروف قضماً، تتناثر الكلمات من بين شفتيها ، مثل وقع اللؤلؤ على بلاط مصقول، باذخة في كلّ شيء ، لها ذوقٌ نادرٌ في الحياة ، يخالف أذواق البشر، تحلم لابنتها في المستقبل ، بعريس باهر، تختاره من صور المجلات ، تحفظه خلف زجاج محكم ، لا يطاله غبار الناس .

أخذت جيهان لونها من صفاء وجه أبيها، زاده العيش الرغيد بهاءً، حتى كاد نحرها يشعّ نوراً، إن تمنّاها طالب نصيب ، تبدو له باهظة الثمن ، بعيدة المنال ، مثل حبة كمثرى في غير موسم ، وإن فكّر أحد التودد إليها ، يخشى صدمة موجعة ، كمن يلمس سلكاً من ذهب ، يسري فيه تيار قاتل.

أما أخوها ممدوح ، فهو في الصف السابع ، بعد أن أنهى المرحلة الإبتدائية بالزور ، سمين مربوع ، ذو لحم بض ، ووجه مستدير ، يشفُّ شعره القصير عن جلدة رأسه البيضاء، ينتهي بدوامة من الأمام، تشبه التاج فوق الجبين .

كان الصبي لعوباً واسع الخيال ، له حجرة فسيحة ، تعجّ بالألعاب والصور الإباحية، ثم لا يلبث أن يبدأ الرسم على ورق أبيض دون حساب ، لا يعرف وقتاً للدراسة ، إلا بحضور معلم عند العصر ، يقضي معه ساعتين ، يهدر نصف الوقت في اللهو والعبث ، والأم تتضجّر من وجود رجلٍ غريب في الدار ، ينتعل حذاءً مغبراً ، وربطة عنق باهتة، تلمع بالوسخ ، تفوح من أعطافه رائحة العرق المعطون .

أما جيهان ، فهي في الأول ثانوي ، تزيد عن أخيها أربع سنوات ، مجتهدة ، تلازم غرفتها على الدوام ، تثابر على الدروس، وتستمع إلي الموسيقى والغناء ، وأكثر ما كان يطربها ويسحرها ، صوت (شادية) ، وكانت تحب قراءة الروايات، تغرق في فصولٍ منها أثناء فراغها ، وأحب الكتب إليها ، قصص مصطفى لطفي المنفلوطي ، والروايات التي تسرح بالنفس في دروب الغرام ، ونساء يفقدن الوعي مع الرجال في الغابات وتحت أشجار الزيزفون ، وكانت تبكي بدمع سخي في حجرتها ، كلما قرأت بين السطور عهوداً وآهات ، وقبلات ولوعات للقلوب.

وقد ضبطتها أمها مرات عديدة ،وعيناها دامعتان ، مثل النرجس المبلول ، ونصحتها مراراً ، ان قصص الحبّ لا تجلب لصاحبها سوى الفقر والهموم ، وبالمال وحده ، تُشترى القصور وسعادة القلوب . فكانت الأم كثيرة النصح والإرشاد ، لا تتحمل ضغوطاً عند الجد ، تصدر عنها أوامر صارمة ، حتى تبقى الأسرة

في نظرها مضرب الأمثال ، لكن الأبناء لا يسمعون النصيحة ، والأعمال التي تروق لهم ،يعملونها في الخفاء ، حتى يدركوا هم أنفسهم ، معالم الطريق ، التي تحدد شخصيّاتهم ، وإن لم يكن غير هذا ، لنشأ الأبناء على نمط واحد ، لا يمكن التمييز بين سلوكهم .

كانت جيهان تتبادل القصص مع صديقاتها ،تكتب على حواشي الصفحات جملاً شاعرية أعجبتها ، وترسم سهاماً مسنونة تخترق قلوبا جريحة ، وتنسى بين صفحات كتبها أوراقاً جافة لبعض الزهور ، حتى تبدأ بداية جديدة ، حين تلحّ عليها رغبة القراءة ، وكانت تبدو حالمة ساهمة النظرات في أغلب الأحيان .

أما أخوها ممدوح ، فكان لا يحب أن ينظر في كتاب ، يعتبر الذهاب إلى المدرسة ، واجب مكروه ، حتى يرضى عنه الأهل ، وكانت أدراج مكتبه تعجّ بالمتناقضات ، تفوح منها أحياناً رائحة

الطعام الفاسد ـ له صديق يكبره بسنتين ، إسمه نادر ، أفكاره هوائية ، يهوى تبذير المال ، ويعشق القصص البوليسية، أغرق ممدوح في كثير من الأوحال ، كان أمرّها على النفس ، يوم أن ذهب رشيد إلى مركز الأمن ، يتكفل إبنه الخائب إثر فعل مشين ، ارتكبه مع بالغين في وكر.

حين وصل الرجل إلى مركز الشرطة ،إعترضه خفير عند الباب ، يتحقق من مسعاه ، وبعد أن دخل مكتب الضابط المسؤول، رأى خفيراً فظ ، يقود فتىً جميل الوجه ، مكتوف الساعدين ، غمرت عينيه العبرات ، ولوت عنقه الندامة.

وقف الصبي يرتعش ، داخل قميص كثير الطيّات ، يتلفت حوله جزعاً في كل ناحية ، ومن نظراته تنبعث أخيلة البؤس

والتعاسة ، وتخيّل رشيد إبنه يعـاني نفس المصير ، فضربته صعقة عصبية ، بدأت من أعلى الرأس ، حتى غارت في الساقين .

حين فرغ الضابط من تعزير الموقوف ، طلب من الخفير إحضار ممدوح ، وتبعه رشيد بك بنفس كسيرة ، وأعصاب تنهش الجسم مثل الأشواك ، وعندما وصل باب النظارة ، تصاعدت من بين يدي الخفير ، قلقلة السلاسل والأغلال ، وحين فتح الباب ، بانت جدرانها مظلمة ، مثل وحشٍ يتثاءب ، ولما وجد ممدوح نفسه فجأة أمام أبيه ، إعتراه خزي وبلادة ، وراح يبكي كأنّه شهيد .

قضت جيهان سنوات تعليمها في مدرسة (تراسنطة) ، التي لا تبعد عن الدار ، سوى عشر دقائق مشياً على الأقدام ، تذهب وتعود في حافلة المدرسة ، حتى كبرت ووجدت من ترافقها في الطريق ، فكانت حورية ابنة الجيران خير صديقة لها، في

مدرسة حكومية ، تلبي حاجة المعوزين من التعليم، وجيهان في مدرسة أهلية ، لا تفتح أبوابها إلا لبنات الأكابر، والمدرستان قريبتان من بعضهما ، تفصل بينهما مسافة قصيرة

كانت أسرة حورية على قدر الحال ، تسكن قرب السرايا، في بيت قديم ، وسط أرض واسعة ، فيها أشجار هرمة ، يتناثر بينها أثاث تالف ، وأنابيب مياه ، وخزّانات مهجورة ، بين الهشيم والحطب ، وليس من فسحة معمورة حول الدار ، سوى ساحة مرصوفة بالبلاط عند المدخل ، يتوسطها حوض من تراب قاحل ، تتسامر حوله الأسرة في ليالي الصيف ، يعلو البيت ملحق صغير، يفضي الى باحة مكشوفة ، مشدودة في فضائها أسلاك غسيل .

كانت جدران البيت من الخارج ، موشحه بسمرة باهتة ، كأنّها طحالب جاقة ، دبغت حجارتها على مر السنين ، يفصل بين البيت والسرايا، سور قديم من الحجر ، تتهدل عليه أهداب كثيفة من حوالق الزّينة ، تتفتّق عنها أزهار زاهية ، تتماوج ألوانها مع

أشعّة الشمس ، تقف على الرصيف بين البيتّين ، شجرة خرّوب عجوز ، يبرز منها فرع شارد ، يقف عليه كل طالع شمس ، شحرور أسود ، كحيل العينين ، له منقار في لون العنّاب ، يشدو بصوت عذب ، يشجي النفس ، ويسكب في أعماقها السّرور .

كان البيت يجمع أسرة على قدر أصابع اليد ، يقودها أب يعمل سبّاكاً للأنابيب ، إسمه محمود ، أمه عجوز ، خطفت منها السنون ألق العينين ، وحفرت على شدقيها خطوط العمر ، وزوجة بسيطة الشكل واللسان ، ما زالت في سنّ الشباب ، إسمها نجمة ،كأنه إقترن بها بعد عزوف عن زواج ، حتى تعدّى الثلاثين، وابنه عصام يدرس هندسة الكهرباء ،منذ سنتين في دولة إشتراكية ، وحورية صبية سمراء ، في نهاية المرحلة الإعدادية .

كانت نجمة من الصنف الهاديء المستكين ، أنجبت عصاماً وحورية بفارق من سنوات ، وتركت العناية بهما إلى الجدة ، فكانت المرأة تبدو قليلة الكلام كتومة ، خصوصاً بعد أن فُجعت بالحسرة على أخيها عبد الماجد ، في مذبحة الطنطورة الساحلية قرب حيفا ، على يد عصابات اليهود ، عام ١٩٤٧ ، إلا أنها كانت دائمة الحركة في البيت ، مثل النحلة العاملة ، تفني يومها في أعمال الطهي والغسيل ، وتنظيف أرض الديار ، فكانت المرأة مطيعة ، ترضى بالقليل ،لا يهم محمود منها ، سوى متعة الفرج والمعدة ،وإن تلبّسته الحيرة في أمر واحتاج إلى مشورة ، يعود إلى أمه ، فكانت الأعباء في البيت واضحة المعالم ، فلم تجد المشاكل لها بين النفوس سبيلا ، وبدت الأسرة أمام الناس ، مثل خصلة من عنب ، سلمت من براثن الآفات .

كانت نجمة تنهض كل صباح ، مع الصوت الأول الذي يطلقه الشحرور على شجرة الخروب ، تردد العجين ، وتشعل النار في الفرن من أجل الخبيز ، فيبدو وجهها قبالة النار في حمرة التنور، يصحو زوجها محمود ، على رائحة الخبز المحموم ، يحلق وجهه على عجل ، ويحتسي الشاي عند العجوز ، ثم يأكل نصف رغيف أمام عينيها ، ويخرج من باب الدار يتشهّد ،ويشكر الخالق على رؤية النّور ، يقضي يومه وبعض الليل مشغولاً ، يعود آخر النهار مثل القتيل ، يلقي جسمه على أقرب كنبة أو سرير ، تأخذه غفوة خاطفة ، تختزل منه نصف التعب .

حين يفتح عينيه ، يتعوذ من الشيطان يشكو ألماً في المفاصل ، ويؤكد لأمه في كل مرة ، أنه في حاجة إلى أجير ، يتكيء عليه في مثل هذا السن ، لكن متى ، ومن أين ، يبعث الله له واحداً من أولاد الحلال ؟ .

وحين يحاصره التعب ، يشعر بالندم ، على التفريط بابنه في بلاد بعيدة ، ولو ظلّ عصام تحت جناحيه ، لخفّف عن كاهله جزءاً من الحمل الثقيل .

كانت البنتان تسيران على مهل ، تتبادلان الحديث ، تتفاديان القوائم وسوابق النباتات المتهدلة على أسوار البيوت ، فكانت حورية إلى جانب جيهان ، مثل وصيفة لأميرة حسناء ، ممشوقة الطول ، تشبه هندية حمراء .

في يوم من الأيام ، دعى رشيد بك، جاره محمود لزيارته في الدار ، أبدى له وداً واحتراما على غير عادة ، جلسا معاً في الحديقة، وسط هالة من حفاوة وترحاب ، وبعد ان شرّق بهما الحديث وغرّب ، عرض رشيد على محمود ، شراء الدار وما حولها بثمن معقول .

أطرق محمود يفكر ، والرفض القاطع يطل من عينيه ، رفع رأسه وأخذ نفساً عميقاً ، قال :-

_ الأرض لا تقدر بالمال ، وقيمتها من نواة الأرض حتى نهاية السماء .

زوى رشيد بين عينيه ،وبلع ريقه ، قال :-

- لقد ذهبت في خيالك بعيداً ، فالدنيا تجارة ، وكل شيء فيها بثمن .

تنهد محمود ، وقال :-

- كل شيء يهون على النفس ، عدا تراث الأجداد ، وكل حجر من حجارة الدار ، يشهد على قطرات العرق ، التي أريقت عليه ، من جبين أبي ، حين شيّدها ، وأتعبني معه فيها .

إنسربت في أعصاب الرجل سموم ، وتغير لونه ، وعرض عليه مبلغاً أكبر ، وحين أدرك أنه يتعامل مع صخر ، تململ في مكانه ، وراح ينظر الى جاره بازورار .

إنصرف محمود كأنه مطرود ، وعاد إلى البيت ممسوس الكرامة ، وألفى أمه تجلس على مقعد قرب الجدار ، تنظر الى الشارع ، والسيارات وعابري السبيل .

شعرت الأم ان ابنها مغبون ، بعد ان حسبت أن يعود من زيارته مسروراً . وحين أعلمها عن قتامة اللقاء ، هوّنت عليه، وقالت :-

- يا بني ، هكذا هو رشيد بك ، دائم الظن ، أن الله قد أغلق جمجمته على رقعة من ذهب ، دون أن يعلم ، أن خلف كل صدر منفوخ ، تكمن نفس مرتعدة ، تشك في شرعيتها ، تخشى دائماً سطوة الآخرين ،بإمارة الطاووس ، الذي يستر ضعفه بزهو الريش .

حلت قطيعة بين الرجلين ، كادت في البداية ، تنعكس على علاقة الصديقتين ، ظل فيها محمود دائم التدبير في عمله ، وكوكب

وزوجها يتيهان في لجّة الغرور ، ولا حديث يتندر به كلّ على جاره ، سوى ما تنقله إحدى الصديقتين على لسانها عن حسن نيّة.

ظلت حورية ورفيقتها جيهان على وئام ، تتبادلان الحديث من خلف السور ، او تجلسان على حافة حوض في حديقة السرايا، لا تجد حورية في جعبتها شيئاً عظيماً تتحدث عنه ، سوى جدتها ، وأخبار أخيها في بلاد الروس .

أما جيهان ، فذاكرتها تتزاحم بالأحداث والصور المثيرة ، تتحدث أحياناً ، عن تفاصيل عيد ميلادها ، او عيد ميلاد أخيها ، وحيناً آخر، عن زيارتها مع أهلها إيطاليا ، وإعجابها الشديد بأعمدة كنيسة القديس بطرس ، وسهول إسبانيا ، ومبنى قصر الحمراء ، في ضوء القمر بعد الغروب ، وعن أطعمة محفوظة ، ومكسرات ، لم تسمع عنها حورية طيلة حياتها .

كان أعذب الحديث طلاوةً على أذن جيهان ، أخبار عصام على لسان أخته حورية ، وكانت البنت تحتفظ لأخيها بصور عديدة بين صفحات كتبها ، بعضها بين الثلوج ، وأخرى في الحدائق بين الأجمات ، وقد ثبتت صورته البهيجة في ذهن جيهان، على مشهد حالم ، يقف بقامته الممشوقة ، مع فتاة شقراء ، على مسطح أخضر ، محفوف بالزهور أمام كلية الهندسة ، تظلل عينيه ووجنتيه الضاحكتين ، بتلات من شعره الناعم ، وشفتاه السمراوان ، مضمومتان على إبتسامة دائمة الوميض .

وكلما كانت جيهان تستحضر ذلك المشهد في ذهنها ، تغيب عن الوعي قليلاً ، وتتمنى من قلبها ، أن تجد نفسها في يوم من الأيام ، إلى جانبه في صورة مماثلة ، ولو استجابت السماء لدعائها ، وتحققت المعجزة ، لظفرت بالنعيم الخالد ، الذي تحلم به كل بنت

مراهقة ، في بداية عمرها ، لكن موقف والدها رشيد من العائلة ، جعل التفكير في عصام من المحرمات .

كانت كوكب تقرّع إبنتها كثيراً على تعلقها الشديد بصديقتها حورية ، تقول لها ساخرة :- إعقدي قرانك عليها ونامي معها حتى نرتاح ، وكانت جيهان تتضجّر من كلام أمها ، وتعتقد أن الألفة بين القلوب نعمة من نعم الخالق ، وكانت البنت شديدة الإعجاب ببساطة تلك الأسرة وسعادتها ، وتمنت كثيراً في سرّها ، لو كانت فرداً من أفرادها ، لها أخ خلوق مثل عصام ، تتباهى به أمام البنات.

وكوكب هذه من الصنف الغريب ، لا تحب أحداً أن يكون أحسن منها ، وقد بنت في حياتها صداقات عديدة على مستوى معيشتها ، إلا أنها كانت تتنكّر سريعاً لكل من يتفوق عليها ، ولم

تدخر وسيلة ، لإضفاء كل جميل على بيتها وحديقتها، إلا استخدمتها ، وكان يتولى أمر الحديقة كل صباح ، عامل ينفذ أوامرها ، يسقي الأزهار ويقص العشب ،

لا يستمر معها مدة طويلة ، حتى يفرّ من إلحاحها ، وكانت الجدة تسمعها ، وهي توبّخ الأجير على الجانب الآخر من خلف السور ، تدعو لها في السر ، ان يستر الله تلك المخلوقة في الدنيا والآخرة، على قساوتها مع عباد الله .

كانت الحديقة تبدو لعابر السبيل ، مثل جنة صغيرة ،تتناظر في زواياها ، المقاعد والمظلات والأضواء الخافتة، ووجدت القطط اللعوبة ، مرتعاً لها على مسطّحات العشب ، وكانت تجمع أحياناً في ليالي الصيف ، سمّاراً من معارفهم ، يدار عليهم، طعام وشراب ومكسّرات ، وتسمع فيها رنّات الملاعق على الكؤوس والأطباق ،

وإذا ما تجاوز الليل نصفه ، يضاعف السكون حديثهم ، وتتجاوب ضحكاتهم الناعسة ، بين جدران الحدائق والبيوت .

وكلما إزداد رشيد إعجاباً بجمال المنزل والحديقة ، إزداد إستسلاماً لإرادة زوجته ، وكان يشعر بمتعة غريبة معها ، لم يكد يفرغ من مداعبتها في السرير ، حتى تأخذه غفوة سريعة مثل جرعة من مخدّر ، فأصبح على خير صحة ، وازداد وجهه إشراقاً ، وتعلق بسن الشباب ، وهو يدرك أنه خطى خطوته الثانية نحو الكهولة .

كانت أسرة محمود ، تعتبركوكباً مغرورة ، والتعامل معها ضرباً من ضياع الوقت ، وإذا تعطلت التمديدات في بيتها أو في الحديقة ، تأتي بسبّاك من السوق ، يعرفه او لا يعرفه محمود .

لم تجتمع كوكب مع جارتها أم عصام او جدته ولو مرة واحدة ، حتى تقف على بساطة تلك النفوس ، وعلاقتهم الحميمة

مع بعضهم ، بل كانت تشيح بوجهها عنهم ، وتأخذها العزة بالكبرياء ، على خشونة معيشتهم ، ولسان حالها يقول :-
- ولله في خلقه شؤون .

كانت حورية مأخوذة بجدتها لأبيها ، تنام معها في غرفة واحدة ، تجالسها معظم الوقت ، تبوح لها عن ذكرياتها ، أيام كانت صبيّة في جيلها ، تجمع الحطب من سهول ووهاد قريتها (أم الزينات) ، قبل إستيلاء اليهود عليها ، حدثتها عن الحصاد أيام القيظ ، ورعي البقر في فصل الربيع ، وجرار الزيت ، وخوابي القمح والذرة البيضاء ، حين كانت تضيق بها مصاطب البيوت أيام الغلال ، حدثتها والدمع يغرق عينيها ، عن جنود الأتراك المهزومين في الحرب العالمية الاولى ، وهم عراة في لون الزبيب، يستجدون جرعة الماء بالإشارة ، من أيادي النسوة على خرزات الآبار ، وكلما مرّت العجوز على طرفة ، تضحك حفيدتها كثيراً ، فيضيء بياض أسنانها ، وجهها الأسمر المستدير.

كانت حورية أنشط من صديقتها جيهان ، تفتح عينيها في الصباح قبل جدتها ، تنسلّ من سريرها مثل أنثى الهرماس ، تقضي حاجاتها بسرعة ، تغسل وجهها ، وتضمُّ شعرها الأخيل الطويل ، وتربطه مثل ذيل الفرس .

تعود الى حجرتها ، ترتدي زي المدرسة ، تصحو جدتها على زقزقة دقات الخزانة ، تلقي عليها تحية الصباح وتقبّلها ، فتدعو لها الجدة بالنجاح ، وأن يمد الله في عمرها ، مثل مد الزيت في حبات الزيتون .

تغيب الصبية قليلاً ، تعود بين أصابعها كوباً من شراب، يتصاعد منه البخار ، تضعه قرب رأس الجدة ، تظل تداعبها بالحديث ، وهي تتمايل أمام المرآة ، تدقق في قوامها الممشوق ، تحمل كتبها ، وتخرج من الباب ، تصعد سلم الباحة في خفة الفراشة ، تسير على الرصيف ، تتحاشى أغصان شجرة الخروب، حتى تبلغ باب الحديقة ، تنتظر جيهان ، تتلفت في كل ناحية ،

تجوس المحيط بعينيها ، تمد يدها نحو شجرة ياسمين ، تكلل سوابقها مشربيات السور ، تقطف زهرة بيضاء تتنشق عبيرها المبلول ، تتحسس بأصابع يدها الأخرى ، بطحة صغيرة داكنة على عنقها ، خلقت معها منذ سحلتها أمها من بطنها ، قبل سبعة عشر عاماً ، تترقب رفيقة دربها جيهان ، تخطو خلف زجاج المدخل الكبير ، تحيط وجهها هالة من نور ، فتغبط حورية ، صديقتها على طراوة العيش ، التي فتحت عينيها عليها .

نبّهت جيهان صديقتها حورية ، إلى شاب نحيف ، يطيل النظر إليهما على الرصيف المقابل ، كان يبدو واقفاً ، او متكئاً على سور حديقة ، تحت أهداب شجرة أسكدنيا ، ترخي فروعها على الطريق، ينظر في كتاب ، كانه ينتظر أحداً ، أو يتصنّع الدراسة ، وتكرر المنظر حتى صار مألوفاً .

بعد أن ثبتت الصورة على حال ، بدأت تصدر عنه حركات وإيحاءآت ، تدعو للحيرة . ألقى كتابه مرة في الهواء ، وحاول أن يتلقفه في حركة بهلوانية ، كأنه يقول لعابر السبيل ، ها أنا موجود، فخانته مهارته ، وانزلقت قدمه على الرصيف ، وهوى من طوله على الإسفلت . كتمت الصبيتان ضحكة مضغوطة ، خرجت أطرافها رفيعة مثل زعيق الفئران .

نهض الفتى من عثرته ، ينفض التراب عن ثيابه ، ضرب كفاً بكف ، ليتخلص من بقايا الغبار ، وحين غابت البنتان في نهاية الطريق ، عاد إليه توازنه ، وعجّت في نفسه عزة الكرامة .

إختفى الشاب أسبوعاً ، ثم ظهر من جديد ، يلفّ على رسغه الأيسر شريطاً من قماش ، لم تصدر عنه هذه المرة ، أية رعونة ، بل أدار ظهره للطريق ، كأنه مهزوم .

نظرت حورية في وجه رفيقتها ، والشماتة تتخايل في عينيها، قالت :-

- يستحق أكثر من هذا ، ويا حبذا لو كُسرت له يد ، ولو كانت عنده كرامة ، لاختفى عن عيون الناس .

قالت جيهان بنبرة موزونة :-

تلك طبيعة الأشقياء ، فقد فطرهم الله على حب الظهور ، حتى يلفتوا الأنظار ، خصوصاً من هم من صنف الدون .

عرفت الصبيتان فيما بعد ، أن إسم الفتى يوسف ، لكن نداءه الشائع بين التلاميذ (شمشون) ، فكانت كنيته الجبارة ، مع جسمه النحيل ، تثير الضحك في نفس الإنسان العبوس ، وفي الأيام التي كان يغيب فيها عن المكان ، تشعر الفتاتان أن مشهداً قد حُجب عن الطريق .

كان شمشون صاحب نخوة ، يحشر نفسه في كل شيء ، هبّ مرة لمساعدة بائع كعك ، لإخراج عربته من خندق قرب الرصيف، فمالت العربة وانقلبت بحمولتها على منحدر ، فحدّقه البائع طويلاً، ورفع قبضته في الهواء ، كأنه يريد ان يخسف الأرض من تحته، فتراجع الفتى مخذولاً .

بدأت علامات الشفقة ، تتخايل على وجه حورية ، وظلت نظرات صديقتها عادية ، كأن الأمر لا يعنيها ، تشجّع شمشون بنظرات حورية ، وبعد أيام ، ألقى على صدرها ورقة مطوية ، فشتمته وهوت على رأسه بحقيبتها .

جفلت جيهان في مكانها ، ونظرات الغرابة تُطل من عينيها ، وبعد أن فرّ شمشون من المكان ، إلتقطت حورية الورقة عن

الأرض لإتلافها ، خشية وقوعها في أيادي الأشقياء ، فتثير زوبعة من شائعات ، لا تُمحى من عقول الناس .

ظلّت الورقة في كف حورية ، تبرمها بين أصابعها حتى تذيبها، وطلبت جيهان منها ، أن تبسطها وتقرأ ما فيها ، فوجدت فيها بيتين من غزل سوقي ، يكاد لا يكون مقروءاً :-

طلناالبكيت تندخن سيجارة ومن لحظ البنت صرنا سُكارى
خذيني عند أبوك بسيجارة عبد مرهون لحين الطلب

مزّقت حورية الورقة ، وداست عليها ، وراحت الصبيتان تتضاحكان ، تتبادلان تهمة التساهل مع مجنون صايع ، قوامه يشبه حصان الخشب .

حين عادت جيهان إلى البيت ، أخبرت أمها بما حدث لها في الطريق ، فنصحتها أن تهجر صديقتها ، إذا كانت تثير حولها الشبهات ، حفاظاً على سمعة العائلة في الحي ، لكن عرى الصداقة بين الفتاتين ظلت متينةَ ، لا تقطعها نصيحة أم ، جربت فيِ صباها دروب البنات .

اختفى شمشون عن الأنظار ، وإن لمحته البنتان صدفة من بعيد ، يسرع في المسير ، أو يتوارى خلف القوائم والأسوار، فشعرت حورية بالنصر ، وتمنت في سرّها أن تعرف شيئاً عن هذا المخلوق ، بعد أن سمعت جدتها تبيح لبعض الناس أعذاراً ، حين قالت مرة :-

- إذا مرّ إنسان مكشوف العورة في السوق ، فلا بدّ أن يكون وراءه دافع .

حلت عطلة الصيف ، وجلست حورية تسامر جدتها ، وتعين أمها في البيت ، وسافرت جيهان مع ذويها ، إلى دولة أجنبية من

أجل الترويح ، وحضر عصام من أوكرانيا ، بعد أن أنهى سنته الثانية ، في قسم الهندسة ، لقضاء العطلة بين الأهل، واستعادت جدته نصف شبابها ، حين أطبقت عليه ذراعيها، وضمته إلى صدرها .

بدأ عصام في اليوم الأول يطلب طعاماً من أمه ، كان يحبه وهو صغير ، وصار أصحابه يتقاطرون عليه بعد الغروب ، يتسامرون في ساحة الدار ، تظل حورية ساهرة في الداخل تستمع الى المذياع ، تقف على شعرة من شعر رأسها ، طبق يروح وطبق يجيء ، والجدة غارقة في النوم ، مثل خنفساء أعياها السعي طول النهار .

كان الأصحاب يتضاحكون ، ويتذاكرون طرفاً ونوادر ، حصلت معهم في الأيام الخالية ، وكلما علت أصواتهم بالصخب، ويضاعفه السكون في الليل ، ينهرهم واحدٌ منهم كان خجولاً ،

مذكراً إياهم بالصوت العالي ، الذي قد يطال الجوار ، فيبدد عصام مخاوهم ، ويطمننهم أن جيرانه في سفر ، والدار خالية من أصحابها .

في صبيحة اليوم الخامس من وصوله عمان ، صحا عصام على منبه سيارة لبيع الغاز ، تجوب الحي على هوادة ، فتعوذ من الشيطان ، وجرب النوم مرة أخرى ، لكنه جافاه ، فخرج إلى الفناء، فوجد جدته تجلس في مكانها قرب الجدار ، تنشق السعوط، وتناجي حبات سبحتها .

نظرت إليه بعينيها الصغيرتين ولفتتها العطوفة ، ودعته أن يجلس معها ، رقد عصام بجانبها ، ووضع رأسه في حجرها ، مالت العجوز تتحسس شعره وتناجيه ، وراحت تتحرّى أسراره في بلاد الغربة، إلاّ أنه ظل قابضاً على تفاصيلها.

حين شعرت الجدة ان في حديثه تضليل ، سفعته على خده بأصابع يدها ، وقالت له وابتسامة تضيء محيّاها :-

- لا تكذبي يا فأرة وابنتك في الحارة .

وتابعت تداعبه :-

- وصورك العديدة بين الشقراوات ، التي تدسها حورية بين صفحات دفاترها ، ماذا تقول عنها ؟

تثاءب عصام بصوت مسموع ، مثل كلب ناعس عند الغسق ، وقال ساخراً من جمود عقول الناس في بلادنا :-

- الشقراوات والسمراوات ، والذكور في بلادهم سيّان ، لا فضل بين الجنسين على بعضهما إلاّ بالجد والإبداع ، حتى تجاوز الناس في حياتهم المفتوحة عقدة الجنس ، وغدت الأنثى في عرفهم ، كائن جميل خلاّق ، حتى غاب عن أذهانهم ، أنها عضو تناسلي فقط ، يمشي على الأرض .

إستغفرت الجدة ربها ، وضربت كفاً بكف ، وقالت :-

- لا بد انها من علامات الساعة ، بدأت في بلادهم ، ونخشى أن تداهمنا مع الأيام في عقر دارنا .

سخر عصام من هواجس جدته ، وقال وهو من الضحك في نهاية:-
- لقد أضاء عظماؤهم آفاق حياتهم ، حتى غدى المستقبل أمامهم واضح المعالم ، وصاروا يعرفون ما يريدون ، وما لا يريدون.

كلما كان عصام يأتي الى عمان ، تفقد جيهان بعضاً من توازنها ،تبدو ساهمة خلف النوافذ ، تكثر التجوال في الحديقة ، تقطف كل حين ، بتلات من زهور ، تهديها إلى صديقتها حورية ، ظاهرها الحفاظ على التواصل ، وباطنها لغز آخر ، لعلّ عصام، يدرك من حوله ما يلفت الإنتباه.

كم تمنّت جيهان ، لو تبوح بما في قلبها الى عصام ، لكن كيف ومتى يكون ذلك ، ما دام والداها ، يدققان في مقامات الناس، ولا يقدران حاجات القلوب الطرية ، إلا بميزان الربح والخسارة؟ ، ودعت من قلب حزين ، لو تجلس معه مرة واحدة ، لتفيض عليه بمحبتها ، مثلما تتساقط الثمار الناضجة من تلافيف الأغصان .

لم يكن عصام يعرف شيئا عن خفايا قلبها ، ولا يحلم يوماً في وصالها ، حتى يرشدها إلى ما يتطلع إليه ، بل كان يعتقد انها سعيدة بالنعيم بين ذويها ، في حين ، كانت تعيب عليه صمته الغامض ، مكتفياً بنظرات وإيحاءات من بعيد ، تكاد لا يكون لها تفسير .

جربت مرة وهي تبتسم ، أن تمسح بكفها على غرّتها ، في لفتة صريحة ، فردّ عليها بأحسن منها ، فتنهدت البنت بصوت مسموع ، كاد قلبها يفرّ من بين ضلوعها ، وهتف قلبه قليلاً ، وسرى في أعصابه تيار مريح . مثل أي رجلٍ تبتسم في وجهه أنثى، خصوصاً من وراء الحواجز ، فكل ممنوع له طعم لذيذ .

لم تدم السعادة طويلاً ، حتى داخله فتور ، حين قفزت إلى رأسه صورة والدها ، الذي كان يخشاه عصام في طفولته ، وتجسدت أمام عينيه نظراته القاسية ، حين كان يجده يلهو تحت

شجرة الخروب بين الدارين ، يعبس في وجهه ، ولم يداعبه مرة واحدة في طفولته الصغيرة .

كما أوحت له جدته في حديثها وهوصغير ، أن هؤلاء صنف من البشر ، غير جديرين بالحب والنسب ، لأنهم اعتادوا على السير بين الناس ، ورؤوسهم تطاول النجوم .

فأصبح لديه قناعة ، أن جيهان تشبه كنزاً ثميناً من ذهب ، لكنها في حوزة الغول ، ومنازلة الغيلان خطيرة ، ليست مضمونة العواقب ، فكبح قلبه ، وهو يعلم علم اليقين ، أنه ليس بمقدور البشر ، أن يفصلوا الحب عن الحاجة ، ولو جردنا القلوب من شغفها ، لتحوّلت المخلوقات الحيّة إلى جمادات ، ولظل كل شيء ساكن في مكانه مثل الحجارة ، كما كان يدرك تماماً ، ان الحواجز بين البشر ، لا تمنع العيون عن النظر إلى الأشياء الجميلة.

لكن الأم كانت لها بالمرصاد ، حين بدأت تلاحظ إنقلاباً على تصرفات ابنتها ، وتعقبتها مرات عديدة من خلف الزجاج ،

وضبطتها تقوم بلفتات وحركات مشبوهة على غير عادتها ، فدعتها أن تحافظ على توازنها ، وحين ثارت البنت في وجه أمها ، نصحتها أن تطرد من رأسها ما يشغلها ، وأن تقدر مكانة والدها ، الذي إذا ساوره شك في سلوكها ، سيقلب الدنيا جحيماً على رأس عصام وذويه ، وقالت لها :-

- أين نحن ، وأين هم ؟ فعودي الى صوابك قبل أن تجلبي لنا العار .

أصرت جيهان على براءتها ، واستطاعت أن تبدد مخاوف أمها بثورتها ودموعها ، إلا أن الأم ظلت فريسة لهواجسها ، جعلتها تحسب كل يوم ألف حساب .

إنقضت عطلة الصيف ، وبدأت صفرة الخريف تدب في أوراق الشجر ، ووجدت حورية نفسها في الأول ثانوي ، وجيهان في

سنتها الأخيرة ، وظلت الصديقتان على تواصل ، تسيران جنباً إلى جنب كل صباح في الطريق ، حتى تحمي كل منهما الأخرى .

واظبت جيهان على دروسها، وكانت أمها دائمة الحث والنصيحة ، وأكثر ما كان يخرج البنت عن صوابها ، أخوها ممدوح ، حين يثير ضجيجاً بين الغرف ، يعبث في خصوصياتها ، فتنهره الأم بصرامة ، حتى يلزم الحدود .

كانت جيهان رقيقة حساسة ، تنداح دموعها على خديها ، كلما وقعت عيناها على أزهار الحديقة ، تبرق بالندى مع طلوع الشمس، تدرك أن تلك الأزهار لها عمر محدود ، سيأتي يوم تتهاوى فيه تيجانها تحت الأقدام .

كانت البنت تحلم في طفولتها أن تدرس الموسيقى ، خصوصاً العزف على العود ، وأمها تريدها طبيبة أو مهندسة ، وظلت الأم توعدها برغباتها ، حتى تنهي دراستها .

في هذا السن الفائرمن عمر البنات ، بدأت الأحلام الغريبة تناوش جيهان ، فمرّة ترى في منامها ، أنها تحمل طفلاً أبيض اللون أشقر الشعر ، عيناه زرقاوان ، ومرة تمسك بحجر كريم ، فاقع الصّفار ، منقوش عليه بخطٍ جميل إسم فتى أحلامها ، وأن رذاذاً من مطر ، يتساقط على شعرها من فتحة في السقف ، وهي في غاية الإبتهاج .

وفي ليلة من شهر نيسان ، رأت جيهان ، في منامها مستحيلاً، حين حلمت أنه نبت على جانبي بطنها جناحان ، يشبهان جناحي فراشة ، لكنهما من لحم ودم ، وحين سألت جدة حورية عن طلاسم حلمها ، ضحكت العجوز من أعماقها ، وقالت بحياء الأنثى الخبيرة في شؤون النساء :-

- هذا شيء طبيعي ، يحدث مع كل عذراء تحلم بالزواج .

إلتزمت جيهان فترة بالجد ، حتى تخلت الأم عن شكوكها ، وفي ساعة من ضجر ، فاض بها الوجد ، وتصورت عصاماً يحبها ، ودفعها الشوق والحنين ، لمعرفة عنوانه في أوكرانيا من أخته حورية ، وترددت كثيراً في الكتابة إليه ، وكلما عثرت في المجلات على عبارات جميلة ، ترحّلها إلى دفتر مذكراتها، حتى تصطفي منها أعذب الكلمات ، لكي تكتبها في رسالة معطّرة إلى حبيبها .

وكلما أمسكت قلماً بين أصابعها ، تشعر بقبضة تمنعها ، أولهما ، مكانة أبيها المزعومة ، التي يتشبث بها بين الأصول العريقة في عمان ، وثانيهما ، كبرياء الأم ، حين يتعلق الأمر بالنسب الرفيع بين العائلات .

لكنها صممت هذه المرة ، ان تبعث له شيئا فِي البريد ، حتى ولو نفحة عطر ، لاعتقادها ، أن الخضوع إلى الحبيب ، ينقي النفس ، ويطهرها من الأدران .

دخلت غرفتها ، وأغلقت الباب وراءها ، وجلست خلف المكتب، ودعت إرادتها أن تمدها بالرعاية ، وراحت تسكب على ورقة بيضاء عصارة لوعتها ، في عبارات غير مترابطة ، لا تلبث حتى تمزقها ، وظلت هكذا ، حتى إهتدت إلى صيغة أعجبتها، سطّرتها بخط جميل ، وضمّخت الرسالة بالعطر ، بعد أن مهرتها بأحمر الشفاه .

في اليوم التالي ، عرّجت على بريد الجبل قبل العودة إلى الدار، أودعت الرسالة وهي خائفة ، وحين نظر موظف البريد في وجهها عن غير قصد ، زادت خشيتها ، وتصورته من أعوان أبيها، الذين يوافونه بالأخبار قبل وقوعها ، فشعرت أن حجمها صار صغيراً ، وتيقّنت من أن النفوس إذا أغواها الجاه، جفّت المحبة بين الناس .

عندما وصلت الرسالة إلى عصام ، قلّبها بين أصابعه عدة مرات ، كونها غريبة ، وراح يختبر نباهته قبل أن يفتحها ، حتى

يطيل على نفسه متعة المفاجأة ، وحين عجز عن معرفة صاحبها ، فضّها بسرعة ، فعبقت في خياشيمه رائحة عطرها ، وقرأها في نظرة واحدة ، ووجد فيها كلمات مؤثرة ، جاء فيها :-

- حبيبي عصام

بعد التحيّة

أكتب إليك هذه المشاعر ، من وراء المسافات ، لعلني أعرف في أي إتجاه أسير ، فقد أصبح قلبي حائرا ، بين تأثيرات الزيف ، التي عاشتها أسرتي ، وموجبات البساطة ، التي نعمت بها بين ذويك ، فأدركت أن الفقير ، ليس فقير المال ، إنما هو صاحب القلب القاحل ، فقد حدّثتني عنك حورية كثيراً ، حتى تمثّل طيفك في وجداني مثل عمود النور ، ولكل فتاة فتى أحلام ، يظهر لها على حين غفلة من وراء الحجب ، فكنت أنت الحبيب المنشود، وقد عشقتك في سرّي ، كما يعشق الطلع زهور الحقل في فصل الربيع .

آه ...

أين أنت الآن يا حبيبي ؟

هل تسمع لوعتي وصرخة حبّي من وراء الرواسي والسهوب البعيدة ؟

آه ...

ما أعظم الحب يا عصام ، إنه يذيب قلوب الغيلان المخيفة ، ويحيلها إلى فراشات زاهية ، ترفرف على تيجان الزهور .

التوقيع

زهرة الخريف

سرح عصامٌ بالفكر شرقاً وغربًا ، واستولى على وعيه ذهول ، ولم يلبث مدة طويلة ، حتى قفز إلى رأسه طيف جيهان، وأدرك أول مرة ، أن العشق بين القلوب ، له سحر عجيب ، لغته

النظرات والمشاعر ، ليس له قيود ، ولا يعترف بسلطان المال والجاه بين الناس ، بإمارة أمير يهوى غادة حسناء من بنات الريف ، أخذت ألوانها من عناصر الطبيعة ، وأن الأغنياء ، مهما عظم جاههم ، وضاقت خزائنهم بالمال ، فإنها لا تغنيهم ، عن محبة الفقراء .

وبينما عصام مطرق غارقٌ في التفكير، حضرته وصايا جدته مثل حد السيف ، فأخذته العزة والكرامة ، ومزق الرسالة، وألقى بها في سلة المهملات ، وحين نازعته إنسانيته ، نزلت من عينه دمعة ، وجمع قصاصاتها من جديد ، في محاولة لترميمها ، وعندما تجسّدت أمام عينيه صور ذويها ، وضع محبة جيهان له في كفة ، واستحالة قبول والديها في كفة أخرى ،

ولم يلبث ، حتى أعاد قطع الرسالة إلى القمامة مرّة ثانية . حتى يحفظ ماء الوجه ، وانتظرت جيهان شهوراً وأياماً ، لكنها أدركت بعد طول صبر ، أن عدم الجواب جواب .

توالت الأيام بسرعة ، وهلّ الصيف بأنفاسه الحارة ، وعاد عصام إلى عمان ، فوجد أخته حورية ، مقصّرة في دروسها ، وقررت إختصار الطريق قبل سنتها الأخيرة ، بإنتظار عريس يتعثر بها .

أما جيهان ، فقد حصلت على علامات دون المطلوب ، أثارت معها فتنة في الدار ، إنتهت بها في كلية التجارة ، فكانت الضربة الأولى لأحلام والديها، وبعد أن سعت كل بنت في مسارها ، صار اللقاء بينهما لا يتم إلا لماما ، من خلف السور أوعند بوابة الحديقة.

دخلت جيهان كلية التجارة على غيررضاها ، وحاولت أن تقنع نفسها بحسن التدبير ، إلا أن هاجساً كان يلحُّ عليها أنها ضلّت الطريق ، وصارت نفسها تتردى بين الدون والكبرياء ، وشعرت أن الدنيا غدّارة ، تسلب الإنسان أزهى الأحلام ، كلما توغّل فيها ،

وهي مثل الغابة العذراء ، منظر ساحر من بعيد ، ومجاهلها تعجُّ بالأخطار .

لم تلبث جيهان حتى أحبت الجامعة ، بعد أن هوت رسّاماً موهوباً من مخيم حطّين ، رسم لها صورة أعجبتها ، ودخل حسّه المرهف وذوقه الرفيع قلبها ، مثل دخول السهم في العجين ، وحين علم والدها بما يدور ، أرغى وأزبد ، وأحال الدنيا إلى جحيم، وهددها بحرمانها من التعليم .

إلا أن جيهان أصرت على عنادها ،وظلّت تتواصل مع حبيبها في الخفاء ، تقضي معه وقتاً طويلاً في الظل تحت الأشجار ، وبعد أن كشفت البنت عن تفاصيل حياة حبيبها ، أصابها فتور ، خصوصاً بعد أن تأكدت ، أن والده يقف على قدميه طول النهار ، خلف بسطة خضار على باب المخيم ، يدلل على بضاعته بأعلى

صوته ، يمسح كل حين ، وجهه بطرف كوفية بالية ، تتدلى حول الرّقبة ، ووصلت إلى قناعة ، أن الزواج بينهما مستحيل ،لكن الصداقة تحت الشمس مباحة .

عاد محمود أحد الأيام مثقلٌ بالتعب ، وطلب من ابنته حورية، ان تتناول أغراضاً من يد الأجير عند المدخل ، خرجت الفتاة من توها ، تتحفظ في خطواتها ، فلمحت بين النور والظلام تحت شجرة الخروب ، شابّاًمعتم الوجه مدبوغ الملابس ، كأنه راجع من الحرب ، حين إقتربت منه ودققت في هيئته ، أصيبت بصعقة ، وقالت في سرّها :-

- يا إلهي ، إنه هو ، من جاء به إلى هنا ؟ وهل هذا هو الأجير ؟.

حاولت البنت أن تضبط أعصابها ، وابتعد شمشون قليلاً، وانحنت هي تجمع الأكياس ، ولم تعرف كيف اختفى شمشون من حولها ، كأنه وطواط لاذ في الظلام .

تكررت المرات التي جاء فيها شمشون إلى الدار ، وكانت البنت تنظر إليه في البداية بعين الدون ، مثل متسوّل جاء يستجدي الصدقة ، كما كان يشعر هو في قرارة نفسه، أنه طاريء غريب ، يتوجس الحرمة عند المدخل ، يقضي غرضه ويمضي سريعاً ، حتى لا يُطيل وطأة ظلّه على أهل البيت .

مع الأيام ، إعتادت الأحاسيس على تفاصيل ملامحه ونواياه، حتى أصبح قدومه إلى الدار عادياً لا يدعو النفوس الى الحذر .

في بداية فصل الصيف ، كلف محمود أجيره شمشون بتعزيل البستان ، وجمع الحديد المبعثر حول الدار ، لبيعه إلى تجّار الخردة ، قبل أن تتوالد فيه الأفاعي والجرذان .

حضر الشاب عند الشروق ، وأرشده محمود إلى العمل المطلوب ، وقبل أن يغادر المكان ، أوصى أهل البيت ، أن يتفقدونه

بالحاجة والطعام ، وخرجت العجوز من حجرتها ، وجلست على مقعد في ظل الجدار ، حتى تروّح عن نفسها ، وتجلي صدرها من طراوة النسيم ، الذي يتدفق بين الحدائق والبيوت ، ولم تلبث حتى اشتبكت مع شمشون في حديث حميم ، طال سيرة الحياة ، وكانت حورية تسعفه كل حين ، بما تجود به أمها ، وهي تتابع حركاته وحديثه خلسة وفضول .

مات والده وهو في المهد ، وتولى أمره في الكبائر جده العجوز ، وبعد أن دخل الصف الأول ، راحت الأم تطرق أبواب البيوت ، تغسل وتكنس ، وتلمع بلاط الأغنياء ، ولم تلبث ، حتى ظفرت بوظيفة آذنة في مدرسة حكومية بعيدة عن الدار ، أشغلتها عن رعاية ولدها ، وهو في ذروة الحاجة إليها ، فوجد الصبي نفسه دون رقيب ، فهانت عليه طفولته ، وراح يتردى بين الخطأ وما يشبه الصواب ، في بيئة جاهلة لإثبات الذات ، حتى نشأ ضعيفاً في الدروس ، يجرجرالأشهر والسنين دون نجاح .

لم تقف المآسي عند هذا الحد ، فقد إلتفت الأم على حارس المدرسة ، ووقعت معه في غرام فاضح ، أنساها وداعة إبنها الوحيد ، وذكرى زوجها المرحوم ، وضم الحارس الأم الى زوجته الأولى ، واستولى على راتبها ، بعد أن ربطه في دوامة القروض.

عندما تقطعت بشمشون سبل المعيشة والصدر الحنون ، نصحه جده المعدم الجاهل ، أن يهجر المدرسة ، ويبحث عن عمل يعينه على كسب القوت ، طرق الشاب أبواباً كانت مغلقة، لم يجد باباً مفتوحاً ، سوى باب الله ، حين أفضى به إلى ورشة محمود ، فوجد فيه الأب والمعلم ، الذي تبناه حتى يواصل الطريق .

كان الشاب نحيفاً ضعيف البنية ، إلا أنه لمّاح سريع الحركة والإنجاز ، كأن الإله سيّر في عضلاته الضامرة ، طاقة خفيّة من كهرباء ، فكان منظره يجبر المهموم على الإبتسام ، حين يراه يجر

هياكل الحديد المتشابك مع الهشيم ، مثل نملة فارسية ، تسحب سنبلة فارغة فوق التراب .

بينما كانت حورية مشغولة في الداخل ، سمعت جدتها تدعوها من النافذة ، فأسرعت نحوها ، همست العجوز في أذن حفيدتها ، أن تأتي بقميص مهجور ، من بقايا أخيها عصام ، حتى يرتديه الشاب ، بدلاً من قميصه البالي ، بعد أن مزقته زوائد الحديد .

ألقت البنت نظرة على شمشون ، فوقع بصرها على شلخ في القميص ، تعرّى له الذراع ، وخطرت في بالها لحظة غضبها ، عندما هوت على رأسه بحقيبتها ، حين ألقى على صدرها رسالة الغرام ، فحاسبت نفسها على قسوتها ، ودخلت الدار تبحث عن بديل في خزانة أخيها .

حين عادت بالقميص ، أصابها حرج ، وألقت به في حضن جدتها ، وعادت من توّها الى الداخل ، تتلصص على ما يدور من خلف الزجاج .

مرت سنة ، تكررت فيها المرّات ، التي كلّف فيها محمود أجيره شمشون ، بعمل يحتاج إلى جهد في الدار ، حتى صار وجوده بين الحريم مألوفاً ، يأخذ بعض اللوازم ، أو يعيدها إلى تسوية البيت ، وصارت البنت تمازحه بحذر الأنثى ، وتمارس عليه بعض المقالب اللطيفة ، وحين كانت تختلي بنفسها ، وتستحضر صورته أمامها ، لم تجد فيها وصمة من عيب ، بل رأت فيه مخلوقاً وديعاً ، له وجه الرجل وقلب الطفل ، ولولا عناية الله ، لدفع به ظلم القدر ، إلى السجن أو مراكز الأحداث .

مع جلوسها الممل في الدار ، أصيبت حورية بصبر الأمهات، وراحت تماحك جدتها ، وتكثر الحديث عن الصبايا اللواتي تزوجن

في سنّها ، كأنها تروّج لها مكاناً في الوجدان ، قبل أن يفوتها قطار الزواج .

بدأت البنت تنبش بفضول ، ذكريات جدتها مع جدها المرحوم، سألتها :-

- هل كانت ترتيبات الزواج باهظة في زمانكم مثل هذه الأيام ؟

ابتسمت الجدة عن أسنان مفروقة ، وقالت :-

كانت البنت قبل أن تحيض ، لا تدري ما يدور حولها ، وفي غفلة منها ، يداهمها الزواج دون إنذار مثل الموت ، حتى تجد نفسها في أحضان ابن عمها ، يلعب معها لعبة العريس والعروس، قبل أن تدرك البنت وظائف الأعضاء في جسدها .

ضحكت حورية ، وقالت غير مصدقة حديث جدتها :-

- وهل كانت المرأة وضيعة إلى هذا الحد ؟

تنهدت الجدة حسرة على ما فات ، قالت والإبتسامة تورّد خديها:-

- بل أكثر من هذا ، فقد كان الآباء ، يوثقون أبناءهم وبناتهم بِرباط أبدي ، بجملة قصيرة ، يقولها والد العريس لولي أمر العروس أمام الأشهاد :-

- إبني على حجر ، وابنتك على حجر ، هل تقبل إبني لإبنتك ذكراً ؟

فإن تم الايجاب ، وهو أكيد ، تنجب العرانس الصغار رجالاً في صلابة الحديد ، يشقون الأرض بمحاريثهم ، ويدقون أبواب الدنيا بقبضاتهم ، وإن أعياهم التعب في آخر النهار ، يختزلونه قبل الغفوة ، في رعشة خاطفة ، تشبه الزلزال ، تتجلى لذّتها بعد كل خصام ، ولم تبقى إمرأة عوراء أو كسيحة ، دون أن تجد لها رجلاً يستر عليها ، حتى كانوا يلحقون على عرانس من قبرص ، بل ومن وراء البحار .

تشجّعت حورية برغبة جدتها في الحديث ، قالت مجاملة:-

- بالرغم من تخطّيك سن الثمانين ، ما زال وجهك زاهياً ، وفي عينيك نور .

اشتعل وجه الجدة بالثناء ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة عذبة ، قالت :-

- مضى على رحيل جدك عشرون عاماً ، شعرت فيها ساعة الفراق ، أن الدنيا شارفت على الآخرة ، وعندما عدت إلى صوابي، سلّمت بحكمة الخالق في تدبيره للعباد .

قالت البنت مداعبة :-

_ هل تتمنين لو ظلّ حيّاً ؟

هزّت العجوز رأسها أسفاً ، وقالت بصبر من وطنت نفسها على الايمان :-

- وهل يحتاج هذا إلى سؤال ؟ فنعمة الرجل المرأة ، ونعمة المرأة الرجل .

وتابعت تقول :-

كان رحمه الله ، يلحّن الحكم والمواعظ إلى عتّابا وميجنا، وهو قابض على كابوسة المحراث ، خلف فدّان البقر في السهول، يغنّي بصوت وقور:-

بالجوز بالجوز بالجوز فرّخ يا حمام وطير بالجوز
كيف البالغ يصبر بلا جوز وكيف يقدر يطيق الفراش

تمادت حورية في براحتها ، وقالت :-

- ما رأيك في عريس من جيلك ، يبلل شيبته على صدرك ؟

- عقدت العجوز نبرة بين حاجبيها ، وسفعت وجه حفيدتها بمنديل كان في يدها ، وقالت :-

- أغربي عن وجهي يا بنت الكلب ، قبل أن أعفر وجهك بالتراب .

جفلت حورية من مكانها ، وقالت وهي من الضحك في نهاية:-

- إسمعي منّي يا جدة ، قبل أن يقصف الموت أعمارهم .

ضحكت الجدة ، حتى كادت تنقلب على ظهرها ، قالت وهي تبحث عن علبة السعوط في عبّ ثوبها :-

- إدعي ربك لي يا بنيتي بحسن الختام .

قامت حورية من مكانها ، وهوت بوجهها على رأس جدتها تقبلها ، وزادت في دعابتها ، وسألتها :-

- هل تذكرين شيئاً عن يوم الدخلة ؟

تنهدت العجوز من أعماقها ، وقالت :-

- أذكرها كأنها بالأمس ، وهل أنسى تلك اللحظة ، التي أمرني فيها جدك ، أن أثبت السراج على صدري دون حراك ، حتى يتمكن مني في النور ؟

تشجّعت حورية بصراحة جدتها ، وقالت مازحة :-

- معنى هذا أنه دخل بك على نور خافت ، مثل أنوار شموع هذه الأيام ؟

زوت العجوز بين عينيها ، وقالت :-

- كان بصلنا أحلى من عسلكم ، وسُرجنا أطول نفساً من شموعكم ، فقد كان جدك يتمكن مني أينما يشاء ، مثل الغزلان في البر ، مرّة على طراوة التّبن في الزريبة ، ومرة تحت أشجار البرتقال ، أو في حفائر السهول بين الهشيم .

أشعلت الذكريات في قلب الجدة أشجاناً كانت خامدة ، وحين فاض بها الوجد ، تنهدت طويلاً ، وتفصّدت الدموع من عينيها ، وتابعت تقول :-

كانت لحيته الناعمة ، مثل الحمامة البيضاء ، تدغدغ نحري ووجنتي ، وأنفاسه الدافئة ، تضخ الدم في جسدي المستكين ، وجفوني مسبلة وأنا بين ذراعيه ، أصحو باكراً في صباح اليوم التالي ، نشيطة مثل النحلة ، عيناي معقرتان بالكحل ، أكنس الباحة ، وأعلف الدجاج ، أذبح له أعتى ديك تكريماً لإبداعه . وعند العصر ، أضع أمامه طبق (الهيطلية) ، أو الكلاّج المضمخ بالزيت والسكر ، ولا أناديه بإسمه ، بل بأبي محمود .

كان شمشون دائم الإحساس بالدون ، يقضي سواد الليل ، في حجرة مستقلة عند جده ، تكسو زوايا الغرفة بيوت العنكبوت ، عرّت الرطوبة ، بعض المواقع من طلاء الجدران.

بدأ الصبي يعمل مع محمود كأجير تحت اليد ، ينقل العدّة ، ويشقّ مجاري الأنابيب في الجدران وتحت التراب . وكان يتوق إلى صدر ، حنون يفرغ فيه شحنات الضيم والمهانة ، التي لحقت به من نزوات أمه ، بعد أن هجرته وهو في طراوة العود .

تلمّست العجوز بقلب الأم الذي لا يخطيء ، نظرات الضعة والحرمان في عيني الفتى ، فراحت تعطف عليه وتخصّه من بعض مخبآتها ، حتى غدت في مكانة الأم الرؤوم ، وإن ذمّه محمود في غيابه ، تقف الجدة إلى جانبه ، تنسب كل هفوة من هفواته ، إلى قلّة الخبرة في الحياة ، التي هي حقّ الجاهل على الفهيم .

كانت حورية تسخر أحياناً من أحاديث شمشون ، تمازحه وتماحكه كلما جاء يأخذ غرضاً من تسوية الدار ، وكان الشاب

مسالماً دائم الغفران ، نهرتها جدتها مرات عديدة ، أن لا تتمادى في براحتها .

مرت سنتان ، تغيّرت فيهما أشياء كثيرة ، ملت حورية الجلوس في الدار ، وأتقن شمشون مهنة السباكة على أصولها ، حتى صار الساعد القوي لوالدها في العمل ، وأصبحت جيهان في سنتها الثالثة ، وأخوها ممدوح في الصف العاشر ، بعد تنقّل في المدارس ، ونكبات من الرسوب ، وعاد عصام من اوكرانيا ، يحمل في حقيبته شهادة الهندسة ، وفي قلبه أحلاماً عريضة .

في صيف هذا العام ، طافت في الحي بهجة الأفراح ، احتفلت ثلاث أسر من أهل الجوار ، بزواج أبنائهم في شهر واحد، وطرق باب السرايا طيّار وسيم مع أمه ، أملاً في طلب يد جيهان من ذويها.

كانت الأم قد رأت البنت في إحدى الصالات صدفة ، عاينتها في غفلة منها ، فأعجبها لونها وقوامها البض السليم ، ومن لسان إلى لسان ، وهاتف إلى هاتف ، حتى اعتمدت المرأة قرارها.

كان الشاب يتيماً ، مات والده وهو صغير ، ربّته أمه من ماء عينيها ، وعاهدت ربّها ، أن تختار له عروساً حسناء ، من أسرة غنيّة لها جاه ، حتى يغدو فرح ابنها مضرب الأمثال.

زارت الأم دار العروس وحيدة على غير موعد ، حتى ترى البنت على طبيعتها ، استقبلت كوكب المرأة في البداية بارتياب، ظنّا منها أنها ضلّت العنوان .

راحت المرأة تتحدث ببراعة عن أحوال الدنيا ، وبعد أن تشعّبت في مسارب الحديث ، عن الأصل والفصل والمعيشة

الراقية ، هدأت نفس كوكب ، وتجاوزت شكوكها ، ووعدت أم العريس خيراً ، بعد أن أكدت لها أن لكل شيء أصول .

حين طرحت كوكب مطلب المرأة أمام زوجها ، داخله فرح وحزن في آن ، فرحٌ لسعادة إبنته حين تصبح عروساً مثل خلق الله ، وحزن لقرب تجاوزه عهد الأبوة ، إلى مكانة الأجداد .

حدد رشيد بك موعداً للجلوس مع الجماعة ، لم تمض أيام حتى جاء موعد اللقاء ، دخلت المرأة بكامل حشمتها ، ووجهها يطفح نوراً ، يتبعها ابنها ، فكانت جيهان ، أول من فتح لهما الباب والقلب معاً ،قبّلتها الأم بلهفة ، ودعت الرّب أن يحميها من عيون الناس .

قادتهم جيهان بترحاب خجول نحو بهو واسع ، تبدو للعيان أزهار الحديقة من خلف الزجاج ، إرتبكت البنت قليلاً ، وراحت

تشغل نفسها في ترتيب أشياء لا داعي لها ، ولم تلبث الأم حتى ظهرت من موزّع بين الغرف ، يتبعها رشيد بك ، انسحبت جيهان نحو الداخل ، تعيد تنظيم أنفاسها .

رحّب رشيد بالضيوف ، وزادت الأم في الترحاب ، كان وجه الشاب نديّا لامعاً يطفح بالنور ، تفوح من أعطافه رائحة العطور ، سأل رشيد العريس عن ترحاله في أنحاء الدنيا ، حتى يختبر عنده طلاقة اللسان ، وراحت كوكب تثني على بساطة أهل الغرب وسهولة معيشتهم ، وهي تهزّ رأسها بالإمتنان .

لم يمض وقت ، حتى ظهرت جيهان تتصنّع في خطواتها ، تحمل بين يديها طبقاً عليه شراب في لون الأرجوان ، وبعد أن شرّق بهم الحديث وغرّب ، طال الأصل والفصل والمنابت ، ساد صمت يتخلله نظرات ، وتململ العريس في مكانه ، كأنه يهمّ

بالحديث ، ونظرات الأمّ تحثه على الإسراع ، وبعد أن تلفّت في وجه الجميع ، قال :-

- ابنتكم يا عم ، لا تقدر بكنوز الأرض ، وستكون بعون الله في مكانة السواد من عيوننا ، فحيّاك الله ، واطلب ما تريد .

تنحنح رشيد ، وعدّل من جلسته في مكانه ، وراح يتحدث عن عادات أهله عند الزواج ، ثم أطرق قليلاً يفكر ، كأنه يريد ايجاز الشروط ، قال :-

- لا نريد ذهباً ولا ماساً ، نريد حفلاً بسيطاً مثل بقية الناس ، لكن شرطنا الوحيد ، هو ان تعيش إبنتنا في بيت مستقل قريب منّا، حتى نتمكن من رؤيتها ، كلما شاءت أو شئنا .

تغيّر وجه العريس ، وتململت الأم في مكانها ، كأن مهمازاً لكزها في قاعدتها ، جرى بعدها حوار سقيم ، ظاهره الإحترام ،

وباطنه الأنانية ، وفي النهاية ، ساد جمود ينذر بالسوء ، وغادر العريس وأمه بخطى سريعة ، لا تبشّر بالرجوع .

بعد أن مرّت أيام دون جواب ، زمّت كوكب شفتيها ، وقالت لزوجها :-

- ليس هو العريس المنشود ، فهو ربيب أرملة ، وقد بذلت أمه من أجله الكثير ، ولا ترضى منه بغير الكثير ، ثم انه دائم السفر والتجوال ، ولا يخلّصنا أن تنام إبنتنا جلّ لياليها وحيدة بين الجدران.

كبر ممدوح ، وأصبح داشراً ، بعد أن نبت له ذقن وشاربان، وراح يهدر الوقت في ركوب الدراجات ، والتّخمّع أمام

مدارس البنات وحول الأسوار ، وكان لشخصيته الحالمة ، وعيشة الترف التي ينعم بها ، أثرٌ بالغٌ على تراجعه في الدروس ، فاستدرجت له أمه أبرع المعلمين إلى الدار ، كأنها تردُّ له الروح في غرفة الإنعاش .

كان الصبي كثير الحديث عن العنتريّات والبطولات الوهمية ، لا تطيق جيهان أن يدخل عليها غرفتها ، وكانت أمه تداريه ، وتغض الطرف عن هفواته ، ودفعت به صيف هذا العام، مدّة شهر إلى لندن ، ليتقن اللغة الإنجليزية ، على أن تتكفل به هناك عائلة مقابل المال ، وعاد بعد أن انقضت المدة ، يتكلم مع الناس بنصف لسان .

عاد عصام من غربته ، يحمل في حسّه ذوقاً سليماً ، وراح يتذمّر من كل شيءٍ حول الدار ، وصار يلحُّ على والده ، أن يقوم بإعمار الحديقة ، وبعث الحياة فيها من جديد ، وأوكل الأب المهمة

إلى شمشون ، وراح الشاب يتفانى في تعزيلها وتهذيبها ، من شروق الشمس حتى المغيب .

عند الضحى، دعته أم محمود للراحة وتناول الشاي معها في ظل الدار، فأقبل عليها غارقٌ في العرق ، يتأفف من شدة الحر ، وراحت تهوّن عليه ، وتتحدث معه ، حتى تحقق لنفسها الرغبة الطبيعية في ان تتكلم . راحت تحدّثه عن الحصاد في سهول أم الزينات ، عندما كانت صبية في طراوة عود القصب، وعن الأفاعي الصفراء في لون السنابل ، حين كانت تظهر صدفة في أغمار القش ، أو تتلوّى جريحة ، على أسنان المناجل بين أيادي الحصّادين ، فتصرخ بفزع ، وتنأى بعيداً ، وتقبض عليها أمها من جهة الذيل ، تلوّحها بين الأرض والسماء، حتى يُغمى عليها ، ثم ترصع رأسها بحجر ، وتتركها نعمة للزواحف والنمل .

طال الحديث على لسان العجوز ، حتى فتح جروحاً كانت خامدة في ذاكرتها ، وأكثر ما كان يبهجها في سهول قريتها ، أبخرة البحر الأبيض المتوسط ، تنعقد سحباً بيضاء في فصل الخريف ، تفور وتغور في سماء الكرمل ،ثم تتشتت وتتلاشى، قبل أن تتوغل شرقاً ، في سماء مرج ابن عامر .

ظلّت العجوز تنتقل من حديث إلى حديث ، حتى وقعت عيناها فجأة ، على يمامة ، حطّت على قرنة السور ، يلحُّ عليها وليفاً بالرقص والتهديل ، أملاً في أن يفلحها، وهي تتمنع عليه بغواية ودلال ، كأنها تؤجج في أوصاله شهوة جامحة ، حتى يأتي التلقيح منه شافياً ، وينفخ في أحشائها روحاً من قدرة الخالق .

أعجب العجوز المنظر ، وأعادها إلى ذكريات الماضي ، وتنهدت طويلاً ، وتلفتت في وجه شمشون بعينين كاسفتين ، وقالت وعلى شفتيها ابتسامة الأنثى :-

- متى تريد أن تصبح مثل الناس ؟

غزت شمشون ربكة ، وغشيت وجهه إبتسامة مغلوبة ، وقال وهو من الخجل في نهاية :-

- من مِن بنات الناس ترضى أن تربط حياتها بحياة إنسان مقطوع ، يعيش على هامش الأيام ؟

إعترى وجه العجوز الحزن ، وربتت على كتفه بباطن راحتها ، قالت والشفقة تتلجلج في عينيها :-

- إذا كان هذا سبب حزنك ، فدع الأمر لي ولرب العالمين .

ندّت عن الشاب نظرة إمتنان ممزوجة بالأسى ، كادت لها عيناه تدمعان.

إكتملت الفكرة في رأس العجوز ، وفي ليلة ، ذهبت حورية لتخلد إلى سريرها ، فوجدت جدتها صاحية ، دققت في وجهها ، قالت مداعبة :-

- مالي أراك مفتوحة العينين حتى الآن ، هل جافاك النوم ، أم وافاك طيف الحبيب ؟

ضحكت الجدة من دعابتها ، وقالت :-

- تعالي يا عزيزتي واجلسي بجانبي ، واسمعي ما أريد أن أقول.

قلبت حورية عينيها في السقف ، وجلست على طرف السرير، وقالت :-

اللهم إجعلنا من أهل الخير .

تنهّدت الجدة طويلاً ، وقالت وعلى وجهها ابتسامة الحكيم:-

- مضى على جلوسك في الدار ، ثلاث سنوات بعد خروجك من المدرسة ، دون أن يطرق باب الدار عريس ، والبنت يا عزيزتي، تشبه حبة التفاح اللامعة ، إذا طالها الكساد في السوق ، ذبلت وفقدت بريقها ، وحين لا تجد من يسومها ، لن يبقَ أمامها ، سوى باب القبر ، مهما طال عمرها ، دون أن تترك أثراً خلفها .

إبتسمت البنت ، وقالت مستغربة كلام جدتها :-

وماذا في هذا ؟

ردّت عليها الجدة ، قائلة :-

- شمشون .

ضحكت حورية ضحكة عالية ، وضربت كفاً بكف ، وقالت وعلى وجهها علامات استهانة :-

- والله عال ، لم يبق على القن سوى ممعوط الذنب .

عبست الجدة في وجه حفيدتها ، لتقرأ ما يدور في خاطرها ، ثم قالت :- إسمعي منّي يا مجنونة ، قبل أن تطير الطيور بأرزاقها .

أطرقت حورية تفكر قليلاً ، ثم رفعت رأسها ، وقالت :-

- الزواج يا جدتي ليس لعبة ، بل هو مشروع كبير ، يحتاج إلى بيت وإنفاق .

حين شعرت الجدة أن في حديث حفيدتها ليونة ، إنبسطت أساريرها ، وقالت :-

- كلّها موجودة والحمد لله ، الملحق فوق السطوح فارغ ، ومدّخرات شمشون في حوزتي .

ذهبت حورية في تفكيرهـا بعيداً ، وقالت والقلق يُطل من عينيها :-

- أخشى أن تكون طفولته البائسة ، قد تركت في نفسه أدراناً، فيخرجها عليّ في المستقبل ، مع كل خلاف مثل البركان .

قالت الجدة مستنكرة أوهامها :-

- إسمعي يا عزيزتي :-

- المرأة الذكية ، وحدها تسحر الرجل الجموح بأدوارها بعد الزواج ، فهي أم ترعى طفولته الكبيرة ، وأنثى توقظ فيه الفحولة والرجولة ، وصديقة تشاطره الهموم والطموحات ، ثم إبنة ، تستنهض في قلبه مشاعر الأبوة ، وإن ثبتت صورة المرأة على حال ، وفقدت أدوارها ، فقد ينذر بتحوّل الرجل عنها ، ويقع مالم يكن في الحسبان ، فتلجأ إلى عقولٍ متضاربة لحل مشاكلها، تقود في كثير من الأحيان إلى الطلاق ، وتذكّري أن الغول ، قد يأكل جميع الناس ، ما عدا أم أولاده .

مرّ شهر ، وحورية ما زالت مترددة ، وفكرها دائم السرحان ، تعثّرت مرات عديدة في أعمال البيت ، وكسرت بعض الأواني عن غير قصد ، وظلّت في حيرة من أمرها ، حتى أقنعها والدها بالقبول ، بعد أن حلف على أمها بالطلاق ، أنه لا فرق عنده

في المحبة ، بين أخيها عصام ، وأجيره شمشون ، ولا نقيصة يُحاسب عليها الفتى ، سوى ميوله الشيوعية.

تمت الخطبة في الدار ، وتلاقت النفوس على المحبة ، وبدأت حورية ، تكشف يوماً بعد يوم عن خصال حبيبها،والمعاني السامية في قلبه الكبير ، حتى غدا شمشون واحداً من أهل الدار ، وأدركت حورية أول مرّة ، غباوة الناس ، حين تخدعهم مظاهر الدنيا ، وتجلل أعينهم عن محاسن القلوب .

مع الألفة ، راح شمشون يتمدد بالراحة بين الأسرة ، حتى غدا واحداً منها ، ليعوّض قلبه المكلوم ، ما حرمته الأيام من عطف وحنان ، كما راحت حورية ، تبدي زينتها على استحياء ، تغلي معقود السكر والليمون ، تختلي بنفسها في الحمام ، حتى تنزع عن ساقيها وذراعيها الزغب الناعم ، فتبدو بشرتها السمراء

بعد كل مرة ، في ملمس حبة البرقوق ، وكلما شاهدتها جدتها في إطلالة جديـدة ، تشـمر حاجبيها وتهزّ رأسها ، وتقول لها في دعابة :-

- يتمنّعن وهنّ الراغبات .

فتلوذ البنت بعينيها حياءً ، ويتدفق الدم في شفتيها وخديها ، فيبدو وجهها مثل الزّمرد تحت النور .

بدأ شمشون ، يحيك أسراراً خفيّة ، بينه وبين حبيبة العمر، وصار يخصّها مرّات ومرّات من بعض الهدايا الصغيرة ، التي كان يدسّها في يدها كلما عبر الدار، وصارت مظاهر التّشبيب، تغلب على شكل شمشون بعد الخطوبة ، تبدو للعيان ، من نعومة الذقن وتسريحة الشعر ، وكان حديثه مع خطيبته ، يميل إلى السّريّة التي تليق بالأحباب ، وكان يدقق في قوامه ، في زجاج واجهات المحلات ، كلما مرّ من أمامها ، ولم تقصّر معه حورية في

لغة الجسم وايحاءآت العيون، حتى أنسته هموم الماضي، وغمرت بأنوثتها الفياضة، قلبه بهجة وسعادة ، وراح يهجر بعضا من ثيابه القديمة ، التي لا تعجبها ، لكي يرتديها ساعة العمل ، حتى تتحمّل الأوساخ .

شعر الفتى لأول مرة ، ان الليالي السوداء ، التي قضاها في حجرة كئيبة عند جدّه ، قد آن أفولها ، ومن منّا ، لا تأخذه النشوة بالنصر ، عندما يستحضر في ذهنه ، ساعات الضيق والحرمان ، حين نراها ، جامدة محنّطة ، في متحف الذكريات ، ولولا المر ، ما ذاق الإنسان طعم الحلاوة .

في ضحى أحد الأيام ، جاء شمشون الى الدار ، ليأخذ قطعاً ومعدات من التسوية ، فوجد خطيبته وحيدة في البيت ، بعد أن رافقت أمها الجدة إلى طبيب العيون ، ولعب الشيطان في رأسه، وطلب شمشون من خطيبته أن تغلي له كوباً من شاي ، حتى يكسر مرارة تضايقه في الحلق ، وحين جلس قبالتها، توسّل

لها أن ترتدي زي المدرسة ، التي هجرته بين ثيابها القديمة ، حتى يملّي عينيه من مشهدٍ كان محظوراً عليه في الماضي .

سخرت حورية من مطلبه العجيب ،وتمنّعت في البداية، وحين لمحت في عينيه دنف وحرمان ، رقّ قلبها ، وغابت عنه قليلاً ، ثم ظهرت كما يحب أن يراها ، ودارت أمامه دورة كاملة ، فاستقر بصره على سمّانتي ساقيها وخلفيتها الملفوفة ، وتبدّت في عينيه نقطتان لامعتان تنذران بالجحيم ، وراح يصرّ على أسنانه ، فلم يتمالك نفسه ، وانقضّ عليها مرة واحدة ، وطوّق خصرها بساعده الأيمن ، وهمّ بتقبيلها ، فتملّصت منه بعناء ، ولم تجد أمامها وسيلة للدفاع عن نفسها ، سوى مكنسة القش قرب الباب ، تناولتها من فورها ، وهوت بها على رأسه عدة مرات ، فقاومها ، وتفادى ضرباتها الضعيفة ، وتوحّش في هجومه ، حتى قبض عليها مرة ثانية ، قيّد ذراعيها في ضمة واحدة ، وألقى بها على أقرب كنبة ، وهوى بفمه على عنقها ، وهي تردد وجهها يمنة

ويساراً ، حتى تمكّن في الأخير ، من إطباق فمه على شفتيها ، وحين استكانت تحت صدره دون حراك، شعرت بعصارة تتعارك في جسدها ، تغيّر لونها ، حتى غدت في صفار الليمون ، وحين حضرتها وصايا جدتها ، دبت في أوصالها قوة عجيبة ، صرخت من توها ، فتلبّسه ذعر ، وأرخى قبضته عنها ، وغادرها مخذولاً ، يتوعّدها بالإنتقام ، بعد أن تجمعهما الأيام في سرير واحد .

في نفس الشهر ، تخرّجت جيهان من الجامعة ، تراودها أحلام البنات ، ولم تمض أيام على تخرّجها ، حتى طرق باب السرايا ، طبيب شاب ، يعمل في لواء بني كنانة ، شيّد بيتاً حديثاً على سفح جبل ، في أرض أبيه الواسعة ، يطلُّ على سهول فلسطين غربي النهر ، يداعب ذوائب كرمه كل صباح ، نسيم الصبا المبلول ، رفضت كوكب الفكرة من أساسها ، بحجة بعد إبنتها عن عمان ، وعاد الطبيب مخذولاً ، بعد أن أدرك عن قناعة ، أن شهادة

الطب والمركز المرموق ، لا يبهران أهل المال والجاه ، عن طراوة العيش في المدينة .

من نافذة الملحق الجنوبية ، المطلة على فضاء جبل عمان، كانت حركة السيارات في شارع وادي السير ، في دمدمة مستديمة، وزجاجها يلمع مع شعاع الشمس المائلة نحو الغرب ، وفي دورة المياه التابعة للملحق ، ما زال بقايا ردم ، بعد تجديد الأنابيب فيها، وبدت للعين ، مشاهد ساحرة لأشجار الزنزلخت الباسقة ، تظلل ساحات البيوت ، وما زالت منحدرات جبل عمان ، مغطاة بالأعشاب الصفراء ، بعد أن غادرها فصل الربيع مهزوماً .

وقفت حورية وحيدة ، تعاين مساحة غرفة النوم ، ترسم في خيالها مكان السرير والخزانة ، وطول الستائر وألوانها، فكانت

في تلك اللحظة ، مثل يمامة تتفقد وكراً خالياً ، تقيم فيه عشاً ، قبل أن تطرح البيض من أحشائها .

بعد شهور ستة ، أنهت حورية تأثيث الملحق ، بعفش جديد وملفق ، إستعداداً للفرحة الكبرى ، وفي يوم الخميس ، جالت سيارة العروسان المزدانة بالورود ، شوارع صغيرة في محيط الدار ، تبعتها سيارات قدر أصابع اليد .

أما الدبكة الكبرى ، فكانت قرب شجرة الخروب ، على أنغام المزامير وقرع الطبول ، وسط رقصات الصبايا والغلمان، وقبل ان ينتصف الليل ، أمسك شمشون ذراع حورية بهوادة ، وصعد بها نحو السطح ، ونثرت الجدة على رأسيهما حفنات الشعير ، لئلا تصيبهما ضربة عين .

في اليوم التالي للدخلة ، فتح شمشون عينيه ، وراح يتأمل رأس العروس على الوسادة ، يرقب أشعة الشمس المتخايلة خلف الستائر ، فتضيء شعرها ووجهها المستدير ، وضحك في سره ، حين حضره منظرها قبل سنوات ، عندما شبّت في وجهه كاللبوة ، وهوت على رأسه بحقيبتها ، بعد أن ألقى الرسالة على صدرها ، وهي في طريقها إلى المدرسة . وآمن بقدرة الخالق ، على تطويع القلوب المتنافرة ، ولم الشمل على المحبة ، بقمصان النوم في سرير واحد .

مد يده الخشنة ، وراح يداعب ضفائرها ، وحين تململت وفتحت عينيها ، رآهما سوداوان في الظل ، وملونتان في خيال الشمس ، حتى ظنّ أن كل حدقة منهما ، متعددة الطبقات ، كما رأى صورته في كل حدقة ، مقعّرة في الأعماق .

بعد أن نهل شمشون من شهرالعسل ، غدا عبداً طيّعاً يستعذب العبء الثقيل ، وراح يساعد حورية في أعمال البيت ، فأحضر الأصص ، وعبأها بالتراب ، وقام بتنسيقها في باحة الملحق ، وغرس فيها أصناف الزهور، وزارته أمه عدة مرات ، وإن سألها عن حالها مع زوجها ، تتنهد طويلاً ، وتضرب كفّاً بكف، كأنها شهيدة ، وتقول :-

- الدنيا تسير بحلوها ومرّها ، وكلها عيشة سيدها الموت .

صار شمشون يخرج عصر كل جمعة ، مع العروس إلى الأسواق والأماكن العامة ، تشبك ذراعها في ذراعه ، تتمايل بدلال على كتفه ، وإذا ما وقع بصر جيهان عليهما صدفة أمام الدار ، ينقبض قلبها ، وتعتريها غمّة .

في ساعة صفاء ، ذكّر شمشون حورية ، بالساعة التي هوت فيها بالمكنسة على رأسه ، حين اعتدى عليها أيام الخطوبة، فقالت له في دلال الأميرة :-

- لا زالت المكنسة موجودة في مكانها خلف الباب ، وإن زاغت عينك على غيري من البنات، ستلاقي نفس المصير .

بعد شهر من ليلة الدخلة ، ألمّت بالجدة وعكة ألزمتها الفراش ، وغدا لونها باهتاً وصوتها مبحوح ، وصار همّ الجميع في البيت نيل رضاها ، قبل أن يصيبها مكروه ، وكان شمشون يجلس أمامها يحكم الغطاء عليها ، وحورية تعد لها الدواء ، الذي تأخذه قبل النوم ، ونجمة مشغولة في إعداد العشاء لزوجها ، الذي لا يزال يعاني في الحمام .

في تلك اللحظة ، نبحت كلاب في الحديقة ، بأصوات مسعورة، كأنّه شجار ، تتعالى فيه هرّة الباغي المستبد واسترحام الذليل ، فخرج شمشون من الباب ، فلم يجد شيئاً ، وحين عاد إلى مكانه ، وجد الجدة تعدُّ على أصابعها ، كأنها تذكر في سرّها

آسماء الله الحسنى ، وألفى حورية تضطجع عند قدميها ، فابتسمت الجدة ، ودعتهما للذهاب إلى النوم ، حتى ينهض شمشون من فراشه باكراً .

فقالت لها حورية :-

- الجلوس معك يا جدتي ، يرد الروح وينعش الفؤاد .

ضحكت الجدة ، وغمزت بحاجبيها نحو شمشون ، حتى تدرك البنت معنى نصيحتها ، وقالت لها :-

-عندما يصبح في مخادع البنات رجال ، لا يطلن السهر مع ذويهنّ ،

ضحكت حورية ، وقالت وهي تلوذ بعينيها حياءً :-

- أوه ، لا تفكري في هذا ، فلا زال أمامنا عمر طويل .

زادت الجدة في الضحك ، وهي تدغدغ خاصرة حفيدتها ، وقالت:-

- آمل أن يمد الله في عمري ، حتى أرى أولادكم ، يسعون مثل البط في ساحة الدار .

في يوم من أيام الخريف ، شعرت جيهان أنها مهمومة، خرجت تتمشّى في الحديقة بعد الغروب ، لعلها تروح عن نفسها بعض العناء ، جلست على طرف حوض للزهور ، وأدارت ظهرها نحو الغرب ، كان النسيم طريّاً مثقلاً بالرطوبة ، يهبُّ من فتحة في السور ، يضرب أذنيها وعنقها المكشوف ، يشتّت شعرها المكروت كيف يشاء .

لاحت منها نظرة على جبل عمان ، رأت البيوت على سفحه الشمالي ، تتقنطر على أكتاف بعضها ، ونسيت همومها برهة ، وراحت تتخيّل ما يدور بين الجدران ، وقسّمت في سرّها حياة الإنسان القصيرة إلى حقب ثلاث ، بداية ونهاية ووسط ، ومن لم يقسم له الله حظّ الزواج ، تظلّ تسوقه الأيام ، ساعة خروجه من بطن أمه ، حتّى يبلغ باب القبر ، دون أن يخلّف نسلاً، يخلّده على الأرض .

سرحت بها الأفكار بعيداً ، وقادها خيالها إلى قصور في الهواء ، وتصوّرت فتى أحلاماً ، سيظهر لها من وراء الحجب ، بقامته المديدة ووجهه المضيء ، يركض نحوها من بعيد ، بخطى طويلة ، في مرج للزهور ، ولم تعد إلى صوابها ، إلاّ على كوابح سيارة ، تقحط الإسفلت قحطاً بإطاراتها ، تبعه إرتطام حديد بحديد، أعادها إلى صوابها .

عمل عصام في شركة الكهرباء في راس العين ، وأضفى وجوده في الدار ، بهجة على وجوه الأهل ، وبدأت المشاتل وأحواض الزهور تزداد في الحديقة وحول الساحة ، وكلما لمح جيهان من خلف السور ، تداخله راحة ، وتصدر عنها حركات لطيفة حتى تشعره بوجودها ، وإن تلاقت عيناه بعيني واحد من ذويها ، يتعوّذ من الشيطان ، ويلوذ في مكان مستور، وحين يعود إلى صوابه ، تدركه نصائح جدته ، حين قالت له مرّة :-

- هؤلاء الناس ليسوا من طينتنا ، والتقرّب منهم ، يورث الدّون والمتاعب ، ويفرض علينا ، أن نظلّ في المرتبة الثانية من حياتهم.

- لم يمض عام ، حتى انطلقت في الملحق ، صرخة مولود ذكر، وضعته حورية ، وحين تأمل شمشون وجه الوليد، وقف خاشعاً ولسانه يلهج بالشكر لله ، ولم يتمالك نفسه ، فهطلت عيناه بالدموع ، وبعد أن عاد إلى صوابه ، أطلق عليه اسم حسن ، تخليداً لذكرى والده المرحوم .

فرحت الجدة كثيراً ، وراحت تهلل للطفل قبل أن يدرك معنى التهليل ، وبدأت في اليوم الأول ، تضمّخه بالزيت ، وترشد حورية، إلى كيفية العناية بوليدها ، وصارت تنادي شمشوناً بكنيته الجديدة، أبي حسن .

فرح محمود بالحفيد الأول ، وحين تأمل وجهه الصغير ، إغرورقت عيناه بالدموع ، وابتسم في وجه حورية ، وقال لها مداعباً :-

- قبل أن تنبت له أسنان ، سوف أعلمه تسنين المواسير ،

وحين وقف محمود أمام المرآة يحلق ذقنه ، شاهد على فوديه أول مرة ، طغيان الشعر الأبيض على الشعر الأسود ، وخطوطاً صغيرة تحاصر العينين والخدين .

توالت الأيام بسرعة ، وظفرت جيهان بوظيفة في البنك العربي على شهرة عائلتها ، وعملت في قسم للقروض ، تحت إشراف رجل في منتصف العمر ، تبدو على ملامحه اليقظة والحرص المستديم ، ووجدت جيهان نفسها مع زميلة في حجرة واحدة ، أوحت لها النظرة الاولى ، أنها أم لأولاد ، بإمارة إهمالها

مواطن الجمال في وجهها وهندامها ، وكثرة المناديل التي تسحبها من حقيبتها .

كانت المرأة بطيئة العزيمة ، تتنهد كل حين ، تشكو متاعب الدنيا بدلال ، تتحدث أحياناً عن شقاوة أولادها ، الذين أوكلت العناية بهم ، بعد عودتهم من المدرسة إلى حماتها ،وكانت تبدي إشفاقاً على زوجها ، الذي يعمل مسّاحاً، يعود آخر النهار ، معروق الوجه مدبوغ القسمات ، وتصورت جيهان معيشة زميلتها، تقوم على الأخذ والعطاء ، حتى تظل حياتها تسير نحو السليم ، واستحضرت صرامة أمها ، التي تشبه قطب الكهرباء الساخن ، لا تطيق أحداً أن يقترب من مجال حياتها، وتذكّرت شروط والدها على العريس الطيار ، ولو حلّ النصيب ، لأنجبت جيهان أطفالاً في زهاء الورد ، يملأون السرايا على أهلها بهجة وسروراً ، وحسدت حورية على معيشتها البسيطة الوادعة .

ظلّ ممدوح يجرّ أذيال الخيبة ، حتى أنهى سنته الأخيرة في الثانوية العامة ، دون نجاح ، ودفعت به أمه الى أمريكا عند خاله ، حتى تتحاشى العار ، وتجبره الظروف على الإعتماد على النفس ، في بلاد تسير على الدواليب ، ولم يلبث حتى غرق في عالم متلاطم الأهواء ، وتزوج من نادلة في إحدى الحانات ، تزيد عنه خمسة عشر عاماً ، أورثت تلك الفعلة لوالده أمراض الضغط والسكر .

لم تمض شهور ، حتى تعرّف عصام على موظفة جامعية، في قسم الأرشيف في الشركة ، اسمها نهلة ، تسكن مع أهلها شرق عمان ، خطبها وتزوجها في زمن قصير ، أقام معها في بيت مستأجر ، لا يبعد عن منزل والده كثيراً ، وراحت الأسرة تحيي في كل ليلة سهرة جديدة ، وحسن الصغير تتناوبه الأيادي والصدور ، ينتقل من حضن إلى حضن .

وقلب عام آخر ، وكبر حسن ، حتى غدا مثل زر النرجس الصغير ، وبدأ بنقل قدميه الطريتين على بلاط الملحق ، وراح يناغي امه وتناغيه ، مرة يضحك ، ومرة يبكي ، فيخرج صوته الشجيّ من نافذة الحجرة ، حتى يطال الجيران ، فينبه في قلوب السامعين نغمة كانت نائمة ، وكان أكثر ما يثير الشفقة والضحك في نفس السامع القريب ، سقوط كرسي أو إناء على أرض الحجرة، يتبعه صراخ برئ ، فياتي صوت أمه حورية ، مدللاً ومواسياً ، ونبرتها تعلو بالتعزير ، على عصفور وهمي، سبب له الأذى وفرّ من المكان ، حتى ينسى الطفل ، ما لحق به من أوجاع.

كثيراً ماكانت غريزة الأمومة تتململ في صدر جيهان ، تغمرها السعادة كلما قدّمت الى إبن حورية ، ألعاباً من بقايا أخيها ممدوح ، وعندما كانت تتأمل حسن الصغير، ترى في وجهه وألوان عينيه ، صورة طبق الأصل عن ملامح أمه ، فيزداد ايمانها

بقدرة الخالق ، عندما يحيل البذرة الجافة ، الى زهرة زاهية تسبي العيون .

بعد عام على زواج عصام ، أنجبت زوجته نهلة ، بنتاً تشبه حبة المعمول ، أسموها ديانا ، وآمن عصام أن التلقيح عن شهوة ، يرزق الزوجين طفلاً جميلاً .

قعدت نهلة في الدار ، ترعى طفلتها مدة عام دون معاش، وحين عادت الى عملها من جديد ، أوكلت العناية بها إلى حماتها، التي حرصت عليها مثل ماء عينيها ، وراح حسن الصغير ، يلهو معها في بحر النهار ، ولم يلبث في كثير من المرّات ، حتى يخونها، ويستولي على ما بين يديها ، فتصرخ الطفلة مستجيرة، فتنجدها جدتها ، ويرتدّ الصغير مخذولاً .

بدأت غيرة خفيّة ، تغزو قلب حورية ، سوّرت لها أن أمها ، تفضّل حفيدتها ديانا ، على حفيدها حسن في الخفاء ، واستعرضت حياتها في الماضي ، وصوّر لها خيالها ، أن عصاماً وزوجته نهلة، يتبوّآن مكانة رفيعة في وجدان الأسرة ، وندمت على خروجها من المدرسة قبل الأوان ، وراحت تطالع دار أخيها في سبل معيشتهم ، تشتري ملابس زاهية لإبنها وزوجها ، حتى لا يكون احدّ أحسن من أحد ، وقطعت على نفسها عهداً ، أن تدفع بإبنها إلى أعلى المراتب، حتى يصبح حسن مثل خاله حينما يكبر.

في ظلمة شتاء ذلك العام ، رأت حورية في منامها ، شجرة الخرّوب القائمة على الرصيف عند زاوية السور ، قد كسحتها في إحدى الليالي ، ريح قادمة من شارع وادي السير ، وأن الشحرور الذي كان يقف عليها كل طالع شمس ، يرفرف نائحاً على رؤوس الناس ، ودموعه تتناثر في الهواء .

في اليوم التالي ، تحوّل الحلم إلى تفسير ، حين بدأت الريح تضجَّ وتخطب ، في الطرقات وحول البيوت ، تلوي بجبروتها قضبان الأشجار، وتقاطرت السحب في سماء شارع وادي السير ، وتلاقت في احتدام مثل قبّة هائلة ، وبدأ المطر ينهل بغزارة ، وأقفرت الشوارع من الناس ، إلاّ بمعبر نادر للسيارات .

وعند الصباح ، أسلمت الجدة الروح في صمت كأنه نوم ، وأقسمت أم عصام وهي تندب عند رأسها ، أنها رأت ملائكة في ملابس بيضاء ، ترفرف حول سريرها .

ماتت الجدة بعد أن تعدّت سن الخامسة والثمانين، وعلّق محمود عصا أمه وسبحتها إلى جانب صورتها على صدر البيت ، واحتفظت حورية ببعض بقاياها وأساورها الفضيّة وعلبة سعوطها في أدراجها ، وكلما ساور حورية شكّ في حديث زوجها،

لا تصدقه إلا بعد حلفان اليمين بروحها ، حتى غدا ذكراها في وجدان إبنها حسن ، في قداسة الصالحات.

توالت السنوات تباعاً ، حتى بلغت جيهان سن الثلاثين ، بدأت تعتبر كل يوم جديد يقبل عليها ، جرس إنذار مرعب يثير الفزع في وجدانها ، فراحت تحسب حسابات أخرى ، وصارت تظن كل من يسألها عن عمرها شامتاً موتوراً ، وراحت تتحفظ على سنوات عمرها سراً ، حتى تخفيها عن الآخرين.

لم تعد أغاني شادية ، تستنهض أنوثتها الفيّاضة ، كما كانت أيام الدلال ، ومزّقت الطرحة ، التي كانت تدور بها على رؤوس أصابعها تيهاً وبهجة ، وبدأت عزيمتها تتراجع ، حتى غدت في هموم الأمهات ، وصار لا يسومها من الرجال سوى من ماتت زوجته ، أو عافها لرعونتها ، وتركت خلفها قطيعاً من الأولاد.

حين كانت جيهان تبدي عناداً أو مكابرة ، تزداد أطياف الخريف في وجهها ، وكلما وقفت في الشرفة ، ورأت رياح تشرين، تكنس أوراق الخريف في الحديقة ، تتفصّد الدموع من عينيها ، حزناً وأسفاً ، على ذوائب كانت يانعة ، تتبوأ مكانة التاج فوق الجبين ، وحين غدرت بها الأيام ، طرحتها تحت الأقدام حتى غدت من صنف القمامة .

كثيراً ما رأت جيهان في أحلامها ، عريساً ممشوقاً ، يبتسم، يعبر باب السرايا ، يلوّح بيده عند المدخل ، وفي يده الأخرى ضمة من زهور ، وحين تصحو من نومها ، تتعوذ من الشيطان، وتشك أنها مجنونة . وكانت الحسرة والغيرة ، تعتصرانها ، كلما وقعت عيناها في الصباح على سروال رجل، يداعب شلحة إمرأة على حبل الغسيل ، يحركهما النسيم ، ينفخهما ويلوّحهما في كل إتجاه ، يصوّر لها خيالها الواسع ، أن الأجساد التي ترتدي تلك الثياب ،

تتناغم في النهار ، وتنام على جنابة في الليل ، حتى غدت في أذهان الناس رمزاً للسعادة .

كما كان يقتلها الحرمان ، كلما شاهدت ، شاباً وصبية ، يتبادلان الهمس والتسبيل ، وهي مستعدة ، أن تفني نصف عمرها، لتعرف ما يدور بين الحبيبين من أسرار ، وهي التي لا ينقصها شيء ، بل كل شيء حاضر لديها ، مال وجمال وصحة ، ما عدا حقها المشروع ، الذي فطر الله عليه الذكر والأنثى ، وفكرت مرّات ومرّات في الانتحار ، لكن إزهاق الروح رهيب ، خصوصاً في سن الشباب .

كثيراً ما رأت جيهان في الحديقة ، قطاً مشتعل الشهوة ، يحدّق في قطّة شبقة ، تتمرّغ في حضرته على الأرض ، وذيله

اللعوب ، لا يكفَ عن كنس التراب ، كلما همّت بخطوة ، يتبعها مثل الظل ، حتى يقضي وطراً منها ، دون أن يثنيه الشبع عن ملاحقتها ، وتمنّت من الله ، لو كان العرسان سلعاً في المتاجر ، مثل أصناف الحلوى المحفوظة ، تختار منهم الصبايا ما يروق لهنّ.

وتتساءل محتارة :-

- هل كتب الله تلك السعادة ، لهذه النفوس قبل ان تولد ، أم صيّرها رجل موهوب ، كان مختبئاً في قشوره ، عندما كان أعزباً، لا تصدر عنه سوى حركات الرعونة ؟

وفي خلوة من قنوط ، قالت في نفسها :-

- حين كنت صغيرة ، كنت أتمنى أن أصير مشهورة ، لكنني اليوم ، أتمنى لو أضيع بين الناس ، حتى أراقبهم من خارج دائرة الضوء ، لكي لا تظهر تفاصيل حياتي الخاوية . لكن أين ومتى ،

ألتقي وليفاً مثيراً ، يدغدغ حياتي الراكدة ، التي كلما دققت فيها ، أراها تسير حثيثة نحو الفناء ؟

نزلت جيهان مرة إلى الحديقة ، رأت قطة تسترخي على العشب ، وصغارها ينهشونها في دعابة ، واحد يدغدغ عنقها ، وآخر يعض أذنها ، وثالث يتولى إخماد ذيلها اللعوب ، وهي تغمض عينيها في نشوة وخضوع .

أعجبها المنظر ، وسرى في جسدها تيّار سحري ، وشعرت أن ثدييها قد شحنا بالدّر ، فحسدت القطط على بوهيميتها ، حيث لا يوجد بين جنسها عزباء واحدة ، حتى لو كانت عوراء أو ذيلها مقطوع ، وأن تلك الحيوانات ، تمارس حقها الفطري ، كلما ألحّت عليها طبيعتها ، وتمنّت من قلبها ، لو يبعث الله (هولاكو) جديد ، يستبيح جنوده كل العازبات ، لينجبن أولاداً ، يملؤون عليهنّ الدنيا بهجة وأمومة ، حتى يسود العدل بين النساء .

وكل عانس لها الحق في غضبها وثورتها ، التي تعصف بذويها كل حين ، وليس من الضروري أن تظلّ هادئة ساكنة ، فالأبدان والنفوس تختلف ، والضغوط الجسدية ، تجرٌ معها ضغوطاً نفسية .

أكثر ما كان يفتح جروح جيهان ، تحقيق في مجلّة ، له إرتباط بعنوستها كما تراها ، فتصوم عن الطعام أحياناً ، وتبلع المسكنات لتهدأ نفسها قليلاً ، ثم تعود أسوأ مما كانت عليه ، حين تسمع عن قريبة أوصديقة للأسرة ، خطبت أو تزوجت ، تلازم السرير عدة أيام ، عازفة عن الطعام ، مع البكاء في السر ، تبحث عن غريم تحمله وزر تعطيل زواجها ، فمرّة تجده في نفسها، حين كانت تترفع عن صفوف العرسان ، الذين طلبوا يدها أيام العز ، ومرة في أهلها ، الذين بالغوا في شروطهم ، حتى فرّ الخاطبون ، وغدت حفلات الأعراس الباذخة في نظر جيهان مثل

بعضها ، تشبه مناديل الورق البالية، آخر منديل في اليد ، يطغى على جميع المناديل ، التي ألقيت في سلة المهملات .

طال انتظار البنت ، وغرقت في سن الأربعين ، دون أن يلوح في الأفق ، فارس أحلام ولو على ظهر حمار ، وبدأ خريف العمر يرسم أطيافاً على وجهها ، تحاول على الدوام طمسها بالمساحيق ، وأصبح ظهورها في الحديقة أو في فضاء الشرفة لا يثير فضولا ، حتى لو كانت في غير حشمة ، فقد قنع المتزوجون من جيلها بنصيبهم ، بعد أن اهتدى كل إلى ليلاه ، ومن عزفوا عن الزواج ، غرقوا في لجة ، العلم ، واعتنق غيرهم الزهد والعزوبية، وتأكدت جيهان أن عقارب الزمن قد توقفت ، وإذا سألها أحد عن عمرها ، يتعثر لسانها في التلفيق ، فتسخر من نفسها قبل الآخرين .

بعد هذا السن ، بدأ الضجر ، يقتحم أبواب السرايا دون دعوة ، وبدأت الأعصاب تشتعل لكل أمر تافه ، وراحت كوكب تتنصل من مسؤولياتها ، تلقي اللوم في تعطيل زواج ابنتها على الحظ الأسود وضيق عقول الناس ، وأخذت جيهان تتحرّى عيوب الأقارب وأهل الجوار ، بعضها معقول ، وجلّها خيال ، وإن حالف الحظ بنتاً وقسم الله لها النصيب ، لا ترى في عريسها ، سوى ما يغثّ البال .

وهكذا ، فإن الإخفاق في تحقيق الذات ، يورث في النفس ، شعوراً قاسياً بندم عميق يصعب كبته ، يولّد في نفسه العدوان بأشكال مختلفة ، يصوّبه نحو الآخرين ، أو يرتدُّ عليه ، حتى يورث في نفسه أمراضاً .

لكن ما عند الله قريب ، فقد طرق باب السرايا عريس أرمل، عزف عن الزواج عشر سنوات ، وفاءً لرفيقة عمره المحبوبة ، بعد أن فارقت زوجها إثر حادث أليم ، قضى الرجل فيها تلك المدة، غارقاً في الحزن والعمل ، وتربية الأولاد ، حتى غادروا العش .

دخل العريس حديقة السرايا ، يتلفت حوله ، استقبله رشيد بك في فضاء الباب الواسع بنفس كبيرة ، قاده مرحّباً نحو بهو فسيح ، تتناثر فيه أرائك ، وارجوحة وايقونات وقناديل تتماهى مع بعضها في نسق بديع .

جلس الأب يجامل العريس ، بعبارات عن ظاهر القلب ، نهض من توّه ، ودخل جناحاً غامض المجاهل ، يوحي سكونه

بحظر التجوال ، راح العريس يجوس ببصره في كل ناحية ، يدقق في قطع الأثاث الفاخر ، تتناظر مع بعضها في سكون مطلق ، يشبه صمت المتاحف .

أدار الرجل وجهه نحو الخلف ، رأى في نهاية الحديقة تمثال من حجر ، لحورية عارية ، يتماوج خيالها عند فخذيها في حوضٍ للماء ، وشعر بفداحة ما أقدم عليه ، وراودته نفسه بالفرار ، بعد ان أدرك أنه طرق باب أسرة ، ترفل في النعيم ، وتقتات على المن والسلوى ، وتنام ليلها على ريش النعام .

لم يمض وقت ، حتى عاد الرجل ، يسبقه صوت هادر ، تتبعه الأم في ترفع مبتذل ، تنقر بكعبها العالي على البلاط ، في ايقاع يسارع في دقات القلب ، مرحبة بالعريس بايماءة من الرأس، ومجاملة مصطنعة من طرف اللسان .

بعد قليل ، أقبلت العروس على استحياء من خلف الستائر، تعرض في مشيتها ، كمن دخلت سوقاً للعبيد من أجل البيع .

بدأت الأم بالتأفف من حرارة الجو ، والأب يشكو تلف بعض البضائع ، من سوء تدبير المستخدمين ، بعد تركها في العراء. وبعد أن استقرت الجلسة على حال ، لملم العريس أطرافه في المقعد ، ودعا الله أن يمد لسانه بالرعاية ، وراح يتحدث عن نفسه بريق جاف ، وهو يدرك سلفاً ، أنه مقدم على صفقة خاسرة .

كانت الأم في تلك الجلسة ، لا ترفع عينيها عن العريس، تدقق في هندامه ، وتحسب عليه حركات يديه وأنفاسه، وبعد أن انتهى من عرض الحال ، وعده رشيد بك بالرد السليم .

غادر الرجل مثل المطرود ، تعثّرت قدمه في سجادة عند المدخل ، ولولا عناية الله ، لسقط من طوله على البلاط .

نظرت جيهان في وجه أمها تستأنس الرأي ، زمّت الأم شفتيها، وشمرت حاجبيها في حيرة واستكبار ، وقالت :-

- (سافيج شوية) ، وأدعو الله أن لا يكون طامعاً في الميراث ، وفي النهاية ، يعود الأمر لك ، فأنت حرّة .

إنقبض قلب البنت من رأي أمها ، وغادرت إلى غرفتها ، وأغلقت الباب خلفها ، وحين استحضرت هيئة العريس من جديد، تجسّدت أمام عينيها ، جواربه البيضاء ، وربطة عنقه الحمراء ، على قميصٍ أصفر ، تحت بدلة كحلية ، وعيناه ينازعان للفرار ، مثل فأر أطبق عليه فخ ، فأصابها دوار ، وهتف في داخلها إنذار خطير، يحذرها أن العريس ، مغشوش ، يتخفى في زي أهل المدينة .

كانت تلك الفرصة الأخيرة من حظوظ البنت ، بعد أن ساق القدر إليها آخر مرة ، عريساً أعمى القلب ، مفتوح العينين، إلى سرايا رجلٍ ، رفع جداراً وهمياً ، بينه وبين الناس، فلم يستطيعوا الإرتقاء إليه ، ولم يحسن هو النزول إليهم .

ظلّ الحال على حاله عدة سنوات ، حتى فرغ الدهر ، من رسم خطوطٍ وأخاديد على ملامح رشيد ، وغدت عضلات وجهه متراخية صارخة المعالم ، مثل شبكة من خيوط الخيش ، وظل مرض السكر يذيب خلاياه ، حتى غدا آخر أيامه ، ضعيف الجسد ، كامد اللون ، مثل عرق السوس الممصوص .

بعد أن هدّ المرض رشيد ، شاهده محمود آخر مرة ، يخرج من باب السرايا ، يتحامل على زوجته وابنته ، حتى وصل باب السيارة في فناء الحديقة ، وهتف هاتف في قلب محمود ، أن الرجل غير مقيم ، وأنه ضيف على وجه الدنيا ينوي الرحيل ، فعرض محمود على ابنه عصام ، زيارة رشيد في الدار ، وقال له :-

- إن من ثوابت الشهامة والدين عند الرجال ، أن يواسوا جيرانهم عند المحن والشدائد ، حتى لو كانوا على نقيض .

بعد يومين ، ساعة العصر ، إنضمّت حورية وأمها إلى الأب والإبن ، وعبروا تباعاً يتلفتون في أرجاء الحديقة ، رحّبت بهم كوكب هذه المرّة ببشاشة وسرور ، وبعد أن صافحت جيهان يد عصام ، قادته مع أبيه إلى حجرة والدها ، وأنارت التعزية وجهها الأصفر بحمرة جديدة ، مثلما تنير أشعة الشمس خلايا الغيوم عند

الأصيل ، ووقفت البنت تعصر كفيها إمتناناً ، وأكسبها الحياء رقة وجمالاً ، بالرغم من بلوغها سن القنوط .

جلس الأب وابنه قرب السرير ، وراح محمود يجامل رشيد، ويوهمه ، أن سحنته ونظراته ما زالت تنضح صحة وشباباً ، ونظر رشيد في وجه محمود نظرة المهزوم ، وقال وهو يهزّ وجهه حسرة على ما فات :-

- إذا خسر المرء مالاً ، وفكّر قليلاً ، رأى النشاط الذي أتى بالمال ، سيأتي بمثله أضعافاً ، فينسى ويسلو ، ولكن إذا أضاع الرجل صحته ، فأين يجدها ، وبم يستعيض عنها ؟

بعد شهر من المواساة والتصبير ، لفظ رشيد الكلمات الأخيرة بصوت مخنوق متوجّع ، وحاول التعلق بالحياة مرتجفاً، مثل قصبة في مهبّ الريح ، ومدّ يده إلى الأمام ، كأنّه يريد أن يقبض على

شيء غير منظور ، وصبغت بشرته بلون قاتم ، ثم جمدت أجفانه، كأنه رأى عفريتاً ، جاء يستلب منه الروح .

لم تمض ساعات ، حتى مات رشيد ، وحمله المشيّعون، وأودعوه القبر خالي الوفاض ، وبعد يومين ، جاء ممدوح من أمريكا ، وحضر اليوم الثالث من أيام العزاء ، ولم يلبث ، حتى دب بينه وبين أمه خلاف ، عاد بعدها ، دون أن يبدي رأياً معقولاً في إدارة الوضع الجديد .

بعد موت رشيد ، بدأت البهجة تذوي في الحديقة ، ورحلت الشاعرية من زواياها ، وجفّت أحواضها من الماء ، حتى هجرتها الطيور .

مرّت سنوات ، وبدأ ظهر كوكب يميل إلى الأمام ، وتدويرة حوضها تخلّت عن بضاضتها ، وفقد صوتها رنينه المعهود ،

وراحت تتجنب الأعتاب والدرجات ، وبدا شريط من القماش يلازم ركبتها اليمنى ، وجلدة رأسها فاهية ، تتخايل بوضوح حول أصول شعرها الأشيب ، إلاّ أنها ما زالت متصابية الهوى ، تتشبث بأصولها ،حتى غدت بائدة في عمرها المهدور .

بعد سنين معدودة ، حطّ بها المرض ، وظلت تتراجع ، حتى خارت قواها ، وضعفت تنهداتها، وعندما شعرت بدنو أجلها ، نظرت في وجه إبنتها نظرة حزن وحنو، ثم ميّلت عينيها ببطء ، وبصوت يكاد يكون غير مسموع ، قالت والدموع تنهل على خديها،

إبنتي العزيزة :-

- ربما كانت المحاسن الظاهرة في حياتنا، سبباً لمصائب خفيّة، وأحزان أليمة ،تنتظر الإنسان في مرحلة من عمره ، فعندما ولدتك، وضممتك إلى صدري في المرة الأولى ، أحسست أن روحي أشرقت بنور آسر، وأن حضني نبض بالحياة الحقيقية ، واستسلمت لشعور

فيّاض ، أن لي إبنة ليس لها مثيل عند بقية الأمهات ، فقررت أن أرعاك بطريقة مختلفة ، دون أن أعرف حينها ، ماذا كنت أعني بمفهوم الإختلاف، فأودعتك أرقى المدارس الأهلية ، وعملت في البنك العربي، بعد أن تعلّمت في الجامعة ، وبعد أن طرق بابنا العريس الأول ، أخذتنا العزة ، وأعمانا الغرور عن روية محاسن الناس ، ورفعنا في وجهه شروطاً قاسية ، وذهب ولم يعد حتى نجا منها ، وجاء العريس الثاني ، وتعالينا عليه لبعده عن عمان ، ولم تغنيك رعايتنا والعمل النظيف في البنك ، عن رجلٍ يرعاك بعدنا ، واعتدنا تدريجياً على وجودك في الدار ، خصوصاً بعد أن هجرها أخوك ممدوح ، وعهدتك مخلوقة طيبة وسخيّة ، تملئين علينا الدار بهجة ورعاية ، لكنني اليوم أنظر إليك بذعرٍ وأنا على فراش الموت ، وأسأل نفسي كثيراً :-

- كيف ستقضين خريف العمر وحيدة في غيابنا ؟ ولا أعرف من هو المسؤول عن وصولنا إلى هذا الحال ؟ ، هل هو غرورنا الأعمى ، أم حرصنا الزائد ، على أن تكوني المرأة ، التي أفرغت فيك إحساسي بالعظمة والغرور ، حتى خرجنا عن دروب الناس ؟

وعندما جاء العريس الأرمل ، لم أجرؤ أيتها الحبيبة على الموافقة عليه ، وكتمت ألمي وقلقي عليك ، لأن ترتيبك بين البنات أضحى في مرتبة أخرى .

جاش صدر الأم بالعواطف ، وأجهشت في البكاء ، ولم تتمالك نفسها من شدّة النشيج ، وانقطع نفسها ، وبقيت شفتاها متحركتين هنيهة ، وبوقوفهما ، همدت كل حركة في جسدها ، ثم اختلجت وتأوهت ، وابيض وجهها ، وفاضت روحها ، وظلت عيناها محدّقتين إلى لا شئ .

أصبحت جيهان بعد موت امها كثيرة الأحلام ، وبدأت كوابيس مرعبة ، تتلبّسها بعد أن تغطّ في نوم عميق ، وفي صبح من صباحات أيام الخريف ، رأت في منامها أخاها ممدوح ، يقف وحيداً على ساحل محيط مظلم ، في ظل سحابة سوداء ، تقطر رعباً ، ورأت عاصفة مجنونة ، تهبّ عليه من البحر ، وتبتلعه في طرفة عين ، فسرى في جسدها تيّار مخيف ، أفزعها من سريرها ، فوجدت فمها جاف ، وريقها جاف ، وتعوّذت بالله من الشياطين ، وخرجت توّاً إلى الحديقة ، تتنسّم عبيراً ، وتخفف من روعها برؤية النور ، جلست على مقعد حجري قرب نافورة الماء ، وتلفّتت في كلّ ناحية ، فوقع بصرها على سرب من حمام ، أبيض اللون وأبلق ، يناور في سماء جبل عمان، تحت سحابة بيضاء عالية ، تتراخى فوق المدينة من الأفق إلى الأفق ، تضيء خلاياها أشعة الشمس الذهبية ، فتبدو للعيان ، مثل فقرات لهياكل حيتان

خرافية، مقطّعة الأوصال تحت النور ، فراق لها المنظر ، وعادت إلى طبيعتها .

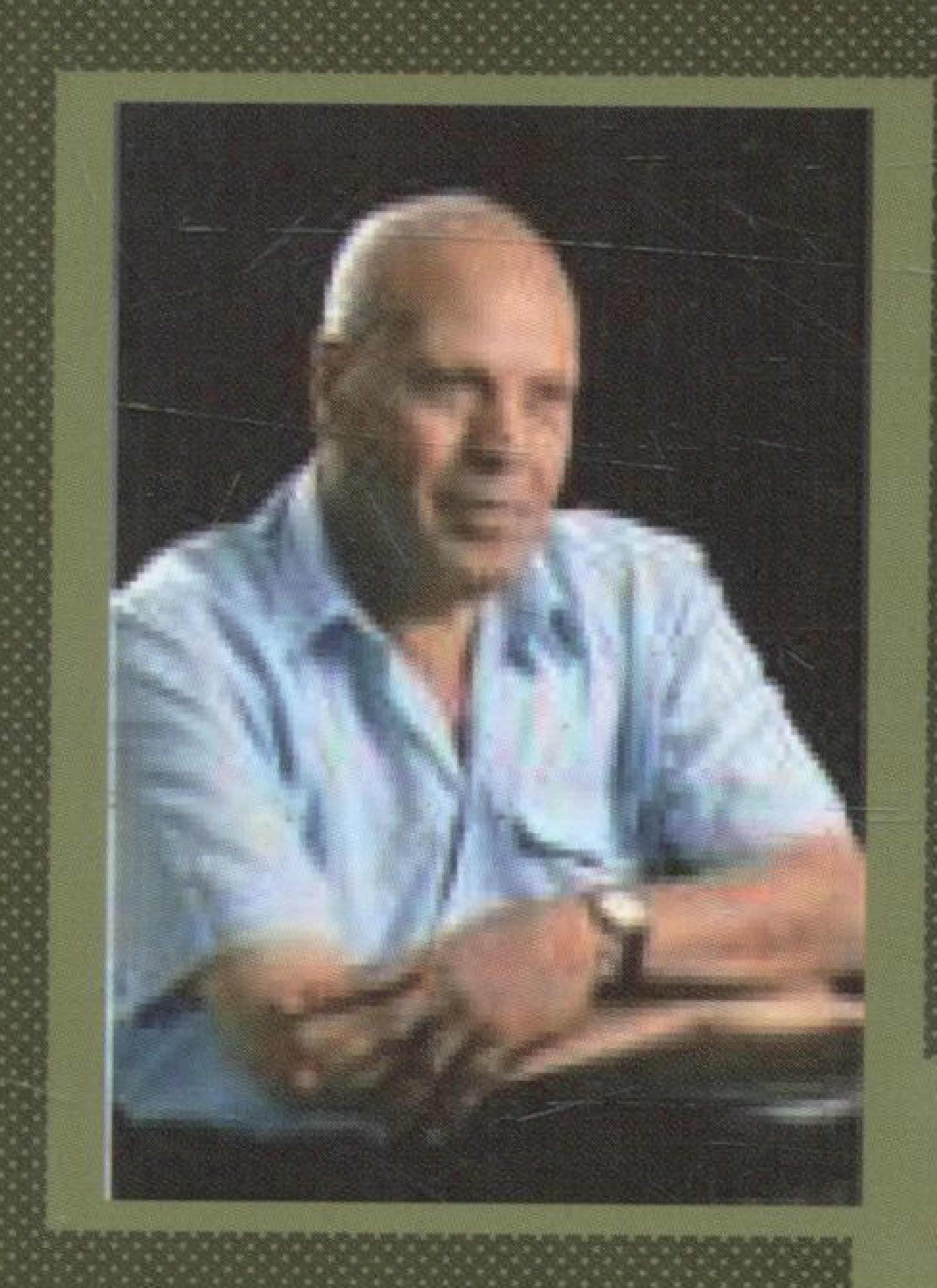
كانت الحمائم تلفّ وتدور في سماء الجبل ، في نسق بديع ثابت الأبعاد ، يحار فيه العقل ، ولم تجد جيهان بعد تأمّلٍ طويل، فرقاً في المهارة تميّز ذكراً عن أنثى، فحسدت الطيور على بوهيميتها ، وتحللها من شرائع الأرض ، وتمنّت من كل قلبها ، لو خلقها الله حمامة من نفس السرب ، تسرح في الأرض دون رقيب ، وتسمو في أفق مفتوح ، حتى تختار رفيق حياتها مثل الحمام .

بعد هذا المشهد ، فرغت الدار على جيهان ، وصرفت عمرها على وتيرة واحدة ، تقول في كل ليلة :-

- متى يجيء الفجر ؟ ، وعندما يجيء الفجر ، تتمنّى أن يزول النهار ، وظلت جيهان هكذا ، حتى حصدت العقود أجيالاً ، وشبّت

على أنقاضها أجيال أخرى ، وامتلأت الأرض المهجورة بالعمارات، وغطت أديمها خلطات الإسفلت ، وجفت أحلام جيهان من مصادر النبع ، حتى غدا وجهها وشعرها في لون رأس الملفوف الكاسد عند بائع الخضار ، وقضت بقية عمرها مثل ساحرة عجوز ، تحرس الكنز الذي خلفه الغول .

إنتهت



أحمد كايـد

هاتف : 0785826147

Ahmadkayed41@yahoo.com

- بيت نبالا - بحث وثائقي / سلسلة القرى الفلسطينية المدمرة / مركز الدراسات والأبحاث / جامعة بيرزيت/ 1998 .
- سماح تجمع نورالقمر - رواية / وزارة الثقافة / 2001 .
- نافذة على الجنة - رواية / مطبعة الشباب / 2004 .
- دير الهوى - رواية / مطبعة الشباب / 2004 .
- ريحانة - رواية / مطبعة الشباب / 2005 .
- الأرملة - رواية / وزارة الثقافة / 2007 .

* فائزة بالجائزة الأولى / اربد مدينة الثقافة الأردنية.

- بنت البلد - مجموعة قصصية/ وزارة الثقافة / 2008 .
- عذاب الياسمين - رواية / وزارة الثقافة / 2009 .

* فائزة بالجائزة الأولى / الكرك مدينة الثقافة الأردنية.

- الرجوع الأخير - رواية / دار الخليج للنشر / 2011

